قمر أخضر
على شـــرفـة ســـوداء

قراءة ممتعة

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية

SyrianStory

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail :unecriv@net.sy

aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

http://www.awu-dam.org

لوحة الغلاف للفنان التشكيلي: جورج شمعون

تصميم الغلاف الفنان: محمود غزال

❑❑

خليل جاسم الحميدي

قمـر أخضـر
علـى شـــرفـة ســـوداء

قـــصص

من منشورات اتحاد الكتاب العرب

دمشق – 2003

الإهــداء

إلى زوجتي وأولادي.
وإلى أمي آخر الملكات ، وأول الأحزان في قلبي .

***

مـدخـل:

لولا الموت والفراق
لكانت الشمس أكثر إشراقاً.

"أموّهان بيجاكلي"

تقدمـــه:

إن الفن لا يرينا ما هو منظور، بل يجعل ما لا نراه منظوراً.

" بول كيلي "

الظهيرة ورائحة الياسمين

((إنَّ الفن مع جذور الكـــائن العميقـــة،
ويختلط بالمنبع الدفين للعواطف))

سيزان

الظهيرة ورائحة الياسمين

1-قيامة الرائحة

حدث كل شيء فجأة، وفي وضح النهار. داخل غرفة قرميدية على السطح، حدث الذي حدث. وصل السطح فانقلبت حاله، وتبدلت نواياه، وصار الذي خاطر من أجله طي النسيان، ولم يعد يفكر به، أو يتذكره وكأنه ما كان.

وصل. فكان كل شيء بانتظاره

الغرفة القرميدية، والمرأة الباسقة كالنخلة، ورائحة الياسمين، والجسد الذي اختمرت فيه كل الفصول وباحت بسره ثماره الوحشية.

حين اندفع يصعد الدرج المؤدية إلى سطح العمارة

وهو يركض ما بين الأرض والسماء، ويروغ منهم كما يروغ الثعلب، من يومها ازداد حذره، وبات يحسب لكل شيء حسابه، ولم يعد يتصرف بطيش أو حماقة.

مهنة ملعونة، وبنت كلب. ليس فيها إلاّ المخاطر، والخوف الدائم، وتنشيف الريق، ولكنها مهنته، وقد تعوّد عليها، تغويه برغم مخاطرها، ولا يجد نفسه إلاّ بها، لكنّ روحه التي كانت تفر منه، وتركض أمامه على الدرج، وهي تثب مثل غزالة مطاردة، وكأنها في سباق معه، تريد الوصول إلى السطح قبله، أشعرته أنّ شيئاً ما

كل شيء كان يتوقعه إلاّ وجود امرأة على السطح، وفي هذا الوقت الميت من النهار، فذلك من رابع المستحيلات، لكنَّ رائحة الياسمين التي دهمته هذه المرة بشراسة أثابته إلى رشده، فارتجف مفتوناً بالمفاجأة، وعيناه تحتضنان المرأة المتكئة على حافة النافذة الصغيرة تحدق بشرود حالم بالسماء، دون أن تنتبه لوجوده، سرّه شرودها وأفرحه، وبعث فيه ما يشبه الارتياح وعيه لمصدر انبعاث رائحة الياسمين التي نفذت إلى روحه كالفتنة.

***

2-قيامة الجسد

وحيدة كانت المرأة في الغرفة

ووحيدة كانت تحلم

رأسها متوجٌ بالضوء، وأشعة الشمس المندفعة من النافذة الصغيرة، وهي تتحسس صدرها المكتنز كالربوة الممطورة بيديها الاثنتين، وتتأوه بفتون امرأة تعيش الحلم بكل روحها، وكيانها، وأحاسيسها المشتعلة.

خفق قلب الرجل بشدة وبدا عليه الارتباك والاضطراب، وغطى وجهه شحوب داكن، وفرّ الغسيل المنشور على السطح من ذاكرته، وكأنه ما كان حلمه ومناه الذي انتشت له روحه، وطار إليه قلبه ولم يبق فيها إلاّ المرأة المتأوهة، وجسدها الذي يفيض برائحة الياسمين.

وبرغم الذي أصاب الرجل ظلت المرأة شاردة، ساهمة، غائبة عمن حولها، تحدق من النافذة الصغيرة وتحلم.

وكان وهج الشمس الحار يزيد حلمها اشتعالاً، وهو يتحول إلى عرق بارد، ينساب فوق جسدها أصابع داعرة، دافئة، باردة، وعذبة، تعبث بمفاتنها، وتلج إلى روحها

والرجل الواقف في اندهاش وذهول، مصلوب بين جسد المرأة ورائحة الياسمين التي تغرق المكان، بصمت كان يراقب المرأة، وقلبه يخفق بشدة.

وعندما طال وقوفه، غشاه شعور بالخوف لما يمكن أن يحدث له لو اكتشفت المرأة وجوده، أو فاجأه ظهور شخص ما، ففكر بالهرب، والفرار إلى الشارع، والبحث من جديد عن غسيل آخر، في مكان آخر، لكن قدميه عاندتاه، تمردتا عليه، تخلتا عنه، وبقيتا ملتصقتين بالأرض، وروحه استقرت عند المرأة، وراحت تومئُ إليه وتناديه، وهي تسخر من خوفه وتردده، وكالمسحور الذي لا يملك من أمره شيئاً، ولج الغرفة كالسطوع الشفيف، متجاوزاً هواجسه، ومخاوفه، وتردده، ومتجهاً إلى المرأة.

***

3-قيامة الخوف

المرأة في تلك اللحظة

في تلك اللحظة تماماً، كانت غائبة عن كل ما حولها، عيناها مغمضتان، ووجهها نهار من ياسمين حالم؛ منتشٍ، بهيٍّ كالشجر الرّيان، لم تكن نائمة ولا مستيقظة، كانت تحلم، وكان الحلم سيدها، وسيد اللحظة، يدخلها كالنعاس القاسي، ويفجرها من الداخل، فيهرب كل كيانها إليه، لتعيشه في روحها صوراً وظلالاً ساحرة، لأشكال وأوضاع تتوق إليها، وتسكنها مثل دمها، ولا تغادرها بالمرة.

وعندما أصبح الرجل داخل الغرفة، ذعرت رائحة الياسمين، وفرّت هاربة إلى صدر المرأة، واختبأت فيه، فخفق صدرها، وفرّ الحلم من عينيها دفعة واحدة، اختفى، وتوارى كطيف زائل، واستدارت بكل جسدها إلى الخلف، فراعها وأفزعها وجود الرجل في الغرفة، وشحب وجهها، وتغيّر لونه، وأطلقت شهقة مذعورة كالصرخة، وخيل لها أن قلبها توقف عن الخفقان، فتقهقر الرجل متعثراً إلى الخلف، فأدركت أنّ الرجل خائف مثلها، وكان ذلك كافياً لأن تستعيد توازنها، وتفكر بالمحنة التي أطبقت عليها من حيث لا تدري، والرجل جامد في مكانه، شاحب الوجه،

–لكن ما لذي دلَّه علي، وكيف وصل؟

هجست المرأة في داخلها تحت وطأة الحيرة والوسواس التي دهمتها كالغاشية، وظلّ سؤالها معلقاً في الفراغ.

فهذه الغرفة ملاذها السري الأمين، تأتيها في غفلة من الناس، وفي وقت ميت من النهار، تنعدم فيه الحركة، وتتوارى فيها عن الأنظار، وحيدة تدخلها، كل شيء تتركه في الخارج وتدخل، ولا يدخل معها إلا جسدها، لتمارس طقوسها آمنة، مطمئنة، غير خائفة، فمن أين طلع عليها هذا الرجل؟ الواقف أمامها كالقضاء والقدر، بعينيه

فكرت المرأة: ثمة خلل ما قد حدث.

خلل أكبر من كل تدابيرها، فوقع ما كانت تخافه وتخشاه، فانكشف المستور، وانفضح سرها، لكنّ ما يثيرها أكثر مما هي فيه، هذا الشعور الغريب الذي نبق في داخلها منذ أن وقعت عيناها على وجه الرجل، وراح يخالط حيرتها ومرارتها، ويشدها بقوة غامضة شرسة إلى الرجل، دون أن تقدر على دفعه، أو التخلص منه.

كانت المرأة تفكر، والرجل صامت ساكن..

وبهدوء رفعت عينيها إلى عينيه، فأذهلها الخراب الذي كان يملأ العينين، والشحوب الذي يغطي الوجه، ويخفي كثيراً من ملامحه، فغمرها حنان دافق نحو الرجل، وبكى قلبها حزناً عليه، وقد أدركت فداحة البؤس الذي كان يعيش.

والرجل يتطلع إليها بانبهار وضراوة، وكل ما فيه يفيض بالحزن والمرارة، والتعب، والبكاء، فاختلجت المرأة، وارتعش جسدها، وقد أدركت بماذا كان يفكر،

***

4–قيامة اللحظة

كلاهما كان صامتاً

وكلاهما كان يحدق في الآخر

ورائحة الياسمين تفعل فعلها في الرجل، تأسره، تخدره وتشله، والشحوب الذي يغطي وجهه يفرّخ في داخل المرأة حناناً ووجعاً، ويجذبها إليه، لكنّ ذهنها الرافض عن التخلي لحظة واحدة عن هواجسه ومخاوفه، يربكها ويوترها، ويجعلها نهباً لصراع مرير، وحيرة قاسية لا تعرف كيف الخروج منها.

كانت المرأة تعيش لحظات حرجة، صعبة ومريـــرة، توزعت فيها ما بين مشاعرها وعقلها، فاختلطت عليهـــا السبل والاختيارات، وأحست أنها تختنق، فلجـــأت إلـــى اللحظة ضارعة، متوسلة، مستجيرة، فنفرت إليها شرسة، ضارية، وقد انفردت من تقاويم الزمن وطقوسه، ثم مدت مخالبها إلى روحها المحاصرة، واستفردت بها، فاستجابت لها المرأة، وأقبلت عليها كاللهفة، ووجههـــا يـــرف مثـــل عصفور يرنو إلى الشمس، لحظة فاتكة، متمـــردة، لهـــا سرعة البرق، وشراسة السيف المرهف، وسطوة الـــسحر في الطقوس والمعتقدات القديمة، لحظـــة تجـــردت مـــن زمانها، وخرجت عن طاعته، فكانت وحدها زمناً بحاله، أطبقت عليها، وانحفرت في عقلها وروحها كالوشم، ثـــم تماهت فيها، والمرأة طوع أمرها، لم تخالفها فـــي شـــيء مما تفعل، كانت مسيَّرة ومسحورة، ولا تملك من أمرهـــا شيئاً، ثم دفعتها نحو الرجل، فتداعت شجرة مـــن حنـــان، ووجع، واستجارة، فتلقاها الرجل بكل ما فيه مـــن تـــوق، وتعب، وانبهار، فـــاختلط المـــزن بالاشـــتعال، والتـــردد بالإقبال، وعندما التحم فمه بفمها، وكفه أطبقت على نهدها وراحت تهصره بضراوة، تأوهت، فنفـــذ تأوههـــا إلـــى روحه، واختلط بدمه مع رائحة الياسمين.

وقتها تماماً: نسي الرجل خوفه وحـــذره، وغـــادرت ذاكرته الجهات والـــشموس، والـــشوارع التـــي تختنـــق بالصهد، والمطاردات، والشرطة.

وكما يحدث في الحلم

رأى الغسيل المنشور على أسطح العمـــارات تدهمـــه الريح، فيروح يرف مثل طيور تود الطيران، ثم لا يلبث أن يطير محلقاً في الفضاء، والرجل ينظر إليه، دون أن يحاول الركض خلفه، أو يثير اهتمامه، وحدها المرأة كانت تمتزج بالرجل، تتسرب في دمه مع أشعة الشمس الوافدة من النافذة الصغيرة ثم تلوذ بروحه وهي تنتحب بمرارة.

***

نـشيـج الفصول الخائفة

((أنت موعود
مع الغيوم الداكنة.
والعذاب
وقلبك تقتله الكآبة والأسى
تعيش دون سقف
بلا احتواء
بلا ارتواء.
لا تثمر سوى التشتت
ومرارة الحزن والألم..))

أموهان بـجاكلي

نشيج الفصول الخائفة

1-نشيج المرارة.

عندما راح الأرقم يرتعش من البرد والإعياء والجوع اشتاقت روحه إلى الجازية وحضنها الدافئ الذي افتقده منذ زمن طويل.

في اللحظة ذاتها، كان المخفر يعبئ بواريده بالرصاص وينتظره على مفارق الطرق، ولأنَّ المخفر كان يسكن ذاكرة الأرقم، ولا يغادرها بالمرَّة، حتى حين يغفو وينام، فقد شعر بالذي يفعله، ولأنَّ بين الاثنين عداوات، وثارات، ودماً مباحاً، فقد ارتعش، ثم ارتعد من الخوف، فابتسم المخفر في داخله، وراح يوزع بنادقه على الحفر، والمغاور، والأحراش، بينما متعب العنزي يدور من حوله كالغراف، وقد داخلته المسرة.

لم يرَ الأرقم ابتسامته، فقد كان كل منهما في جهـــة، ولم يسمعه وهو يقول:

-هذه المرة يجب أن يموت الأرقم.

لكن الجازية التي وقفت ما بينه وبين المخفر نخلـــة طالعة من جرح الروح، وهي تومئ إليه وتناديه، أشعلت شوقه وأججته حين قالت:

*تعال.

-قال لها: خائف.

-قالت له: لا تتردد، فأنا بانتظارك.

وقتها تلاشى المخفر تماماً، انشقت الأرض وابتلعته، فلم يتردد في الخروج من مخبئه، وقـــد فاضـــت روحـــه بالجازية غزالة لها قامة النخلة، وبياضُ الحليب، ورائحة النعناع البريّ، وراح يركض وراء روحه ذئبـــاً شرســـاً وضارياً، وفي دمه تختبئ المرارة والنشيج.

***

2-نشيج الروح

دهمه نباح الكلاب قطيعـــاً مـــن الأرانـــب البريـــة المذعورة فرمحت روحه مهرة خائفة، وتحفـــزت تريـــد

لكن تصاعد حدة النباح وشراسته، أجفله هذه المـــرة، وانتشله من حضن المرأة، ووضعه في مواجهـــة عويـــل خائف انبعث في داخله مثل شـــوكة فـــي القلـــب، وراح يستشري في كيانه كله، فعادت روحه ترمح مـــن جديـــد ظبية مطاردة أفزعتها رائحة الخطر التي انتـــشرت مـــن حولها كالنواح الوحشي، فنهض المخفر من جديـــد، وراح يسد عليها الجهات، فارتعد كالطعين، وقد اختنقت ذاكرته بالوجوه القاسية، الشرسة التي أدمنت مطاردته، وجعلـــت جهات الأرض الواسعة أضيق عليه من ثقب الإبرة، حتى صار لعمره طعم الدفلى، وسطوة النار في الغابة، فـــأيقن

وعندما اختلطت الوجوه بالنباح، ووقــع الخطــوات بالرائحة الزنخة الكريهة التي لا ينكرها، ضاقت الغرفــة به، ورفرفت روحه تريد الفرار، وقد نهضت في داخلهــا البراري والمغاور والوديان، وراحت تومئ إليه وتناديه.

بهدوء حذر رفع رأسه، والمرأة تلتصق بــه وتــشده وهي تتلوى وتموء، أنصت، فخيل إليه أنه كان يسمع مع صوت الريح والمطر وقع أقدام تجوس الليــل العاصــف بحذر وتكتم شديدين، وهي تدور حول المنزل مثل ذئــاب جائعة شمت رائحة الطريدة، فوجف قلبه، ارتعــش، ثــم اختبط، ثم امتلأ بالذعر، وقد امتلأت ذاكرتــه بــالمخفر، ووجه متعب العنزي، فنهضت اللحظة حربة مــن وجــع ونار، واندفعت في الخاصرة زراعة الخطر والخوف في روحه ودمه، دون أن تحفل بــالمرأة وعريهــا الطــافح بالفصول والضراعة والاشتعال.

-قال الرجل بمرارة: إنهم يزحفون من كل الجهات.

-وقالت المرأة في داخلها: الأرقم يهذي.

-قال الرجل في داخله: الجهات تخونني.

-وقالت المرأة في داخلها: أنا جهته، فكيــف يــضل الطريق إلي.

دار الرجل حول نفسه.

وجد المخفر يدور معه، شرق، غرب، كان متعب العنزي يسد عليها الجهات، ويبتسم بشماتة، تقدم، تراجع. ظلت الجهات تحاصره، ورائحة الغدر تفوح منها، شرع ذراعيه، طوح بهما بعيداً، بعيداً، بعيداً ثم قبض على الجهات واعتقلها، ومع هذا ظل نباح الكلاب يتعالى، والمخفر يقف في مواجهته تماماً، ووقع الأقدام يأتيه شرساً وعنيداً، وحدها المرأة كانت خارج اللحظة وشراستها، والرجل وحده كان يحس بالخطر. واللحظة عنده لها شكل الفاجعة ورائحة الدم في أوقات الهزيمة، وهي تواجهه بعيون داعرة، وتنشب مخالبها في روحه، فيرتفع نشيجها حاراً، غامضاً وعميقاً، وله طعم الدفلى، وحزن الشجر المذبوح، فيزداد التصاقاً بنفسه، وابتعاده عن المرأة، ومن ذاكرته تفرُّ الأشياء الأليفة والجميلة كلُّها، مثل عصافير الدوري الخائفة، التي راودته وهو يخرج من مخبئه البارد، ولا يظل فيها إلاّ المخفر، والدرك، ومتعب العنزي، فيرتجف مثل وردةٍ دهمتها الريح وقد استولى عليها الخوف، والمرارة، واليباس.

***

3-نشيج الليلة الوارفة

في آخر الليل خرج.

وحيداً خرج.

تدثَّر بالليل والريح، والمطر، وانحدر من مخبئه مثل جندي مُحاصر قرّر المجازفة، وراح يركض، فركض معه الليل، والريح والمطر، بينما المرأة كانت تركض في العين، والقلب، والشرايين وهي تثب مثل غزالة مطاردة، وتزاحمه على الطريق، فيزداد عدوه، والمرأة تشتعل في داخله قمراً من نار.

هي له وحده، بكل ما فيها من ريح، ومطر، وعتمة، وبرد، هي له، لا شريك له فيها، هو ذئبها، وهي ملاذه، وستره الذي لن يشي به، أو يدل عليه، ليلة مباركة، انحنت عليه مثل شجرة وارفة، حتى اختلطت فيها الأرض بالسماء، وانمحت الحدود بينهما، فأسرى هو ما بين الاثنين وعرج، دليله هذا الصوت الغامض الذي يناديه، وروحه الراكضة أمامه كالغزالة.

كل الدروب انفتحت أمامه، وأعطته نفسها، خالية من الكمائن، والمطاردين، وحده وجه الجازية كان يشع كالمنارة البعيدة، ويحثه على الركض.

وقتها همس في داخله: لا بد أنهم يغطون فـــي نـــوم عميق.

ثم ابتسم.

وقد تراءت له زوجته من بعيد، وهي تفتح ذراعيها، وتدعوه إلى حضنها الدافئ، وجناتـــه الوارفـــة، ناداهـــا، ابتسمت له، وصار وجهها صباحاً من قرنفل أحمر.

–قال لها: لقد اشتقت إليك.

ففاحت رائحة القرنفل، وعانقت روح الرجل، فهـــاج عطش البوح فيه، فأجهشت بالبكاء، وركض قلبها إليـــه، فاختنق الرجل بنشيجه، ولوَّح لها بقلبه، وروحه، وبيديـــه الاثنتين، فرفرفت مثل حمامة بيضاء تودُّ الطيران.

–قال لها: لقد تعبت يا الجازية.

–قالت له: وأنا بانتظارك.

–قال لها: وروحي خائفة.

–قالت له: روحي فداءً لروحك.

–قال لها: والجهات ضاقت علي.

–قالت له: صدري ملاذك.

فمدَّ يديه إليها من أقصى القلب إلى نهايـــة الـــروح، متجاوزاً المخفر وبواريد العسكر، ومتعباً العنـــزي، فـــي

-قالت الريح: الرجل يحلم.

-وقالت المرأة: الرجل خائف.

ومع هذا ظلاً متعانقين.

والده قال لـــه مرة: متعب العنزي يشم رائحة عدوه من مسافة يوم كامل، وحقيقة شموا رائحته.

فارتجفت يده. ثم خارت. وتوقفت عن احتضان النهد الناهض في كفه برتقالة من نار، وغادره لهاثه وذهولـــه وشوقه للمرأة، وتحول كل ما فيه إلى عيـــون مفتوحـــة، حذرة، اندفعت قطيعاً من الذئاب الخائفة إلـــى الخـــارج، تركض في كل الجهات، باحثة، متوجسة، ملتفتة، وهـــي تتلمس خائفة من وجود الدرك، ورجال متعب العنـــزي، لكنها ظلت وحيدة، ولم تجد سوى الليـــل مـــستيقظاً فـــي الخارج وردة سوداء من ريح عاصف ومطر.

***

4-نشيج الدم

المخفر ومتعب العنزي لن يتركاه.

سيظل طريدتهما التي لا تتوقف عن الركض، وخوفها يرتعد في دمها يمامة فزعة، أتعبها الفرار، وسدت في وجهها الجهات، فحياته باتت عاقراً، وفصولها غادرتها المسرات، وارتداها اليباس، وهذه الطالعة من بحيرة الروح غزالة تومئ إليه، مثقلة بالشوق، وأنين الماء في السرو، وتباريح الكروم، سراب غشاه في لحظة الخوف والتيه، حين ضاقت دروب الريح، واعتراه الجنون، كل ما بين يديه سراب، وسيظل وحيداً ومطارداً، تتعاوره الجهات، والزمن الضيق، وما في الروح من وجع مميت، فدمه مباح، وروحه على كفه، واليباس تمادى في حلمه شرساً، ولن يجديه الفرار أو النحيب.

وتذكر.

يوم تحالفا على العباد، وراحا يبغيان في الأرض، وركعت القرى خائفة بين أيديهما، ظل هو عصياً عليهما فهادنوه، وحين انتشروا كالجراد يأكلون الأخضر واليابس في عزِّ النهار، لم يسكت.

فحقدوا عليه، وبيتوا له الشر.

وعندما جهر بالذي فيه: ما يحدث للناس يا ناس ظلم.

قالت مريم الذياب وهي ترجف: الأرقم يلعب بالنار.

أما صرخته فقد اندفعت تركض في القرية مثل نـــار تسوقها الريح، تدق الأبواب، والنوافذ، وتـــدخل القلـــوب الخائفة عنوة، وعندما وصلت المخفر ومتعبـــاً العنـــزي، ارتجفت القرية من الخوف، وانكمشت على نفسها، وقبـــل أن يتحركا أو يفعلا شيئاً انغرست في خاصـــرة الاثنـــين مدية حاقدة، دون أن تخاف بواريـــد العـــسكر أو رجـــال متعب العنزي.

فارتجف العنزي.

وارتجف المخفر.

ارتجفا معاً وفي وقـــت واحـــد، واعتـــرى اللحظـــة الذهول، ومع هذا رفضت أن تكون محايدة، فانقلبوا كلاباً مسعورة وأطبقوا عليه من كل الجهات، وحـــين تركـــوه، كان كتلة لحمية، دامية، مشوهة، وغائبة عن الوعي.

ومع هذا ظل صامتاً مثل قبر، لم يبكِ أو يصرخ، لم يطلب الرحمة أو يركـــع، ودمعـــه تحجـــر فـــي عينيـــه كالصوان، وحده الحقد كان ينمو ويتسع في داخله كالغابة العذراء.

وقبل أن يتنفس الصبح كانت النيـــران تـــشتعل فـــي

تأوهت المرأة وهي تحتضنه فماً جائعاً وجسداً يشتعل بالحرائق والصراخ، لكنه ظل بعيداً عنها، مشدوداً بكل كيانه إلى الخارج، طوقته بذراعيها، وشدته إلى صدرها فاحّة كالأفعى وأصابعها العشرة تنغرس في ظهره قطيعاً من الخناجر، وهي تنفذ إلى روحه كالوجع اللذيذ، فيزداد عذابه وحزنه وهو يقف ضائعاً ما بين دبيب الأقدام، واشتعال الجسد المعبأ بالحرائق والفصول والضراعة، لكن الخوف الذي هطل في داخله ثلجاً أسود شلَّه وجمده، وأطفأ شوقه إلى المرأة.

شدته المرأة أيضاً، ظل بعيداً وعصياً عليها، شدته ثانية، ثالثة ورابعة، ظل كل منهما في وادٍ، وبكت شجرة السرو في الخارج حزناً على المرأة، في حين ظل الليل محايداً فلم يتدخل، أو يفعل شيئاً، وحده المطر أدرك سر عذاب المرأة وحزنها، وبدون أن يتلقى أمراً، نقر زجاج النافذة بأصابعه الندية، فاستدار الرجل مذعوراً، لكنه عندما رأى المطر يقف في الخارج يبتسم له ويناديه، عادت إليه روحه، وقبل أن ينطق بكلمة، قال له المطر:

*الجازية تحبك.

-قال الرجل: وأنا أحب الجازية.

-قال المطر: وهي جهتك التي لن تخونك.

-قال الرجل: ملعون من يخون الجازية.

وقتها تماماً مدَّ المطر يديه الاثنتين، ثم دفع الرجل بقوة نحو المرأة الضارعة، في تلك اللحظة تماماً تعكر وجه الليل، وشجرة السرو لم تتوقف عن البكاء، ومع هذا ظلا بعيدين عن بعضهما البعض، المرأة في وادٍ، والرجل في واد، مع أنَّ كلاً منهما كان يتنفس من رئة الثاني، فازداد بكاء شجرة السرو في الخارج، وخافت المرأة أن تفلت اللحظة منها وتضيع، فنهضت بكل عريها، وانحنت فوقه شجرة من ماسٍ وياقوت وثلج، وشَّاها الزغب، وقد أثقلتها ثمارها، وبرَّحها اشتعال الفصول في دمها، وهي تهجس بالذي فيها بأنين ضارعٍ:

*عانقني.

-إنهم يطوقون البيت.

*لقد انتظرتك طويلاً.

فاختبطت في دمه الكآبة، والمرارة، والنشيج، وتفاقم شعوره بالعجز، وودَّ من كل قلبه لو يخرج من ضيق اللحظة، المريبة، الشرسة، ويستجيب لأنين الفصول

* لا تتركني.

-إنهم يزحفون من كل الجهات يا امرأة.

تجمد المرأة في مكانها وتصمت.

وفي داخلها كانت تنتحب امرأة صغيرة وحزينة، لها عينان من خرزٍ أزرق، فمها وردة، وقلبها يشتعل بالرغبات، تخاف الليل، والمخافر، والقطط السوداء والعسكر، وتحب القهوة، والورد الأحمر، والمطر، والعصافير، والتفاح، وتحلم برجل غامض وشرس، جارح ودافئ، يأتيها من حيث لا تدري، ورائحته تسبقه كالفاحشة، يزين شعرها بالورد الأحمر، ثم يهمس في أذنها بوله المفتون: أحبك يا الجازية. تظل هي صامتة، فيزداد اشتعاله، ويهمس لها ثانية: لجسدك رائحة التفاح يا امرأة. فترتجف بين يديه مثل حمامة بللها المطر، وتلتصق به مثل روحه، فيطوقها بذراعيه، ويظل يعانقها وهي تذوب بين يديه، وتتسرب في دمه نبيذاً معتقاً، وغواية تشتهيها الروح.

مدت المرأة يدها وأمسكت بيد الرجل، وعندما شـدَّ على يدها، تناثر صوتها في الغرفة مثـل قطـع فـضية ترتطم بأرضٍ صُلبة.

* أحبك.

-ليس أكثر مني.

قال الرجل.

فارتجف قلب المرأة وسقط بين يدي الرجل، فانسلت أصابعه إلى شعرها، وخيل إليهـا أن الرجـل زرع فـي شعرها وردة حمراء، وأن رائحتها نفذت إلـى روحهـا، وهمس في أذنها بوله المفتون: لجسدك رائحة التفاح يـا امرأة. وقبل أن تتأكد من ذلك عانقته، ثـم دفعتـه إلـى الخارج، وصوتها الناشج يرافقه مثل روحه: كـن حـذراً فلن يرحموك. والمرأة الـصغيرة تنتحـب فـي داخلهـا بمرارة.

تلفت حوله مثل ذئب شرس، كل شيء كـان غارقـاً بالظلمة والصمت، تحرك، كل الجهات مشت إليه ووقفت بين يديه أليفة طائعة، والأرض انفتحت أمامه مثل قلـب عاشق، نهض، ظلت الجهات أليفة تقف بين يديه، وعندما ارتفعت قدمه عن الأرض، وحدها رائحة الرجال الزنخة نهضت مثل كائنات غامضة، شهق، فاختبط قلب المـرأة

***

الشرفات ترتدي حدادها

((لن أنظر إلى ذهب المساء وهو
ينهمر، ولا إلى الأشرعة البعيدة
وأنا منحدر إلى المرافئ وعندما
أصل، سأضع فوق لحدك باقة
من البهشية الخضراء والخلنجة
المزهرة..))

فيكتور هوجو

الشرفات ترتدي حدادها

(1) :الرجل.

ضاق المنزل بالرجل النحيل.

وهو يلف ويدور في غرفه الكثيرة، بدون توقف أو إحساس بالتعب، وكل ما فيه في حالة انشداه وانشداد وتوتر، يدخل الغرفة صامتاً، ويخرج منها فارغ اليدين، قلقاً، مضطرباً، وقد تغير وجهه وشحب، وعيناه الذاهلتان، الحزينتان، مليئتان بالخيبة، والخذلان، والانكسار.

ومع هذا كان لا يتوقف عن الدوران والبحث في الغرف عن شيء يفتقده ويريده، ويحس بحاجته القوية إليه، لكن أكثر ما يعذب الرجل ويمرمر روحه أنه لا يتذكر هذا الشيء، أو يعرف مكانه، فهو يتخبط كالأعمى

ومع ازدياد دورانه في الغرف، وخروجه منها فارغ اليدين، كانت حاجته إليه تزداد، بينما إحساسه بالعجز والمرارة يتعاظم، مع أنه يحسه قريباً منه، يجاوره تماماً، ويلتصق به مثل ظله، ويكاد يسمع وقع خطواته من حوله، وهو يدور معه في المنزل، وحين يمد يديه إليه، أو يحاول تشكيله في ذهنه، يختفي تماماً، ولا يظل له من أثر في الذاكرة أو المكان.

كانت الجازية تقول له: أنت دائماً تنسى.

وكان يقول لها: إلاَّ أنت يا امرأة.

تقول له: ولماذا إلاّ أنا؟.

يقول لها: لأنك تسكنيني مثل دمي.

استجار الرجل بذاكرته يائساً ومهزوماً.

استنجد بها ضارعاً، فانفتحت عليه مثل كهف مرصود، وتدفقت منها وجوه، وفصول، وأزمنة واندفعت نحوه فاتحة أحضانها، فأقبل هو الآخر عليها، وأعطاها نفسه ضائعاً وملهوفاً، وراح يبحث بينها حتى أنهكه التعب، لكنه ظلَّ تائهاً، فارغ اليدين ولم يجد بينها ما يبحث عنه، أو وشت له بشيء عنه، والمرارة تسكن روحه كالدفلى.

ما يحدث للرجل غريب ومثير، حتى صورة المـرأة المعلقة على الجدار لم تثر اهتمامه هذه المرة عندما وقعت عيناه عليها، وهي التي كان قلبه يثب نحوها حتى قبل أن يدخل المنزل، ولا يجد راحته إلاَّ فـي الوقـوف أمامهـا بخشوع، وعيناه مغرورقتان بالدموع، فهي مـلاذه فـي أوقاته الصعبة، يأتيها مستجيراً، يلوذ بها، ويكوم أحزانـه وعذاباته بين يديها، وفي اللحظة التي يرتفع فيها نـشيجه حاراً ومكتوماً، يحس بأصابعها الطويلة تندس في شعره، وتروح تجوس فيه بحبٍ وحنانٍ، ثم لا تلبث أن تشده إلى صدرها فيمتلئ برائحتها التي تشبه رائحة الحقـول فـي الصيف الحار، فيزداد التصاقاً بها، فتطوقه بذراعيها وتبدأ بالغناء، فيأتيه صوتها مثل رنين أجراس فضية تقرع فـي أراضي بعيدة تحت سماء زرقاء، وشمس كبيـرة وهـو يتصاعد من روحها عذباً، شفيفاً، يفيض بالنشوة، والدفء، والحنان.

هذه المرة لم تفعل المرأة شيئاً يخلصه من ضـياعه، وعذابه، ومكابداته، بدت له وكأنها لم تحس بوجـوده، أو لاحظت ما هو فيه من قلق، وتمزق، ومرارة.

هذه المرة بدت جامدة، باردة، ميتة، وغير مهتمة به، لم تحاول النظر إليه، أو مدت ذراعيهـا لاحتـضانه، ولا ارتفع صوتها بالغناء، وظلت مجرد صورة معلقة علـى

فكر الرجل بالخزانة.

بعثر محتوياتها في كل مكان، وعيناه تتحركان في كل اتجاه، واجهه الثوب النسائي، فتوقف، جمدت يده في مكانها، وقد هبت عليه رائحة المرأة، فانشدَّ إلى الرائحة، وقد شعر بالأرض تدور من تحته، تمسك بالثوب، فتحرك الثوب بين يديه، وخيّل إليه أنّ المرأة هي التي تحركت، فازداد ارتباكه وحيرته، واختلط الأمر عليه، ولم يعد قادراً على التفكير بشكل صحيح، شدَّ على الثوب بقوة، فسرت حرارة الجسد إلى يديه، ورأى بأم عينيه المرأة تتحرك في داخله، وقد اكتسى وجهها بالخضرة، واتسعت عيناها، فهجس:

-: لا بدَّ أنني أحلم.

قالت المرأة: أنت تهذي.

قال الرجل: يقيناً أنا أحلم.

قالت المرأة: أنت متعب وضائع.

قال الرجل: منذ أن رحلت يا امرأة.

دمعت عينا المرأة حزناً على الرجل، وقالت له بصوت مبلل بالنشيج: عانقني.

فارتجف الرجل، واندفع يريد احتضانها، ورآها وهي تندفع نحوه أيضاً، وحين تعانقا خيل إليه أن المرأة كانت تبكي، فطوقها بذراعيه بقوة، لكنه لم يجد بين يديه إلاَّ ثوب المرأة المعلق في الخزانة، فأدرك أنه كان يحلم، وأنَّ الحلم سرقه كثيراً، فارتعش كالمحموم، ثم دفن رأسه في القماش، وراح ينتحب بمرارة.

تعب الرجل دون أن يصل إلى ما يبحث عنه ويريده.

قلب المنزل رأساً على عقب، بعثر محتوياته، ولم يترك شيئاً في مكانه، فانتشرت الفوضى في المكان، ومع هذا ظلَّ ما يبحث عنه بعيداً وعصياً عليه كالسراب، فأيقن بعدم وجوده في المنزل، فقد يكون في أي مكان آخر، لكنه ليس في المنزل.

خفف يقينه هذا من عذابه، وأشعره بشيء من الراحة، أعادت إليه بعضاً من روحه المسلوبة، فقرر مغادرة المنزل، لعلَّه يجده في الخارج، أو يتذكره، وحين عبر من جوار الشرفة لمح الكرسي، فوجف كل ما فيه وجمد، وأحس أن قلبه توقف عن الخفقان، ثم تحرك كل ما فيه دفعة واحدة، وركض نحو الكرسي، أما روحه فراحت تدور حوله كالمجنونة، وهي تتلمسه وتحتضنه بشوق ونشوة عارمة، اختلط فيها الفرح بالنشيج، فأدرك أنه كان يبحث عن الكرسي، أجل الكرسي، وملأته راحة

***

(2) : الكرسي.

منذ البداية كان الكرسي يراقب الرجل من الـشرفة، وقد شدته حركاته المريبة، المرتبكة، ودورانه في الغرف كالملهوف، فأدرك أنه يبحث عن شيء يفتقده ولا يجـده، لكنه ظلَّ ساكناً في مكانه ولم يتـدخل، رغـم إحـساسه بالشفقة والحزن عليه، فالأمر لا يعنيه في شـيء، ومـا يبحث عنه الرجل هو شيء غير الكرسي، فقد مـرَّ مـن جواره أكثر من مرة دون أن يحاول النظر إليه، أو يقـف عنده، فكأنه لا يراه، وعيناه شاردتان، تائهتان تبحثان في كل اتجاه، دون أن تتوقفا عنـد الكرسـي، أو يثيرهمـا وجوده، فآخر ما يفكر فيه الرجل هو الكرسي، والكرسي يعرف ذلك ويعيه.

لقد نسيه الرجل تماماً، وكأنه لا يعرفه، أو يعنـي لـه شيئاً، خان العمر الطويل الذي بينهما، نسي كل شيء، ورماه

هو عاتب على الرجل وليس حاقداً، فقد كان يعــرف مكانته عند المرأة، منذ أن دخلت المنزل، اختارته من بين الكراسي كلها وجلست عليه، من يومها صـــار يخــصها وحده، ولا ترتاح إلاَّ بالجلوس عليه، وحتى عندما تشرب قهوتها في الشرفة كانت تحمله معها، وكان الكرسي يحس بما يشبه الغيرة في عيني الرجل، لكنه كان يكذب نفــسه، وقد مضى عليه وقت طويل وهو ملقى بإهمال في الشرفة دون أن يتذكره، أو يكترث به، والمرأة التي كانت ترعاه وتفتقده رحلت، فتغيرت حياته تماماً، صـــارت مــصفرة، يابسة، لا حياة فيها ولا معنى، كلُّ شيء ذوى ومات، ولم يعد فيها إلاَّ الإهمال، والوحدة، والصمت.

بعد رحيل المرأة صارت حياتـــه صـــعبة وقاســـية، مريرة ومملة، وتبعث على الحزن والشفقة والرثاء، فـــي النهار يراقب المارة، والأطفال، والقطط الشاردة، وتلاميذ المدارس، والسيارات التي تعبر الشوارع بصمت، ويحلم بعودة المرأة الطيبة التي كانت تحبه وتعطف عليه، لتنتهي عذاباته وأحزانه التي تفتك به كالطاعون، ويعود كل شيء إلى ما كان عليه، وفي الليل ينكمش على نفسه مثل قـــطٍ خائفٍ، ويظل يرتجف من البرد والخـــوف حتـــى يطلـــع

لقد نسيه الرجل تماماً.

ما عاد يريد رؤيته، أو الاقتراب منه، ولا النظر في خلقته، يمر من جواره متظاهراً بعدم رؤيته، فهو يـــذكره بالمرأة الراحلة، وحياته الحلوة، السعيدة معها، حتى شربه القهوة في الشرفة توقف عنه، مرتين أو ثلاثاً فعلها بعـــد رحيل المرأة ثم توقف.

وفي المرات كلها كان رجلاً آخر غير الـــذي كـــان يجلس مع المرأة، دون أن يتوقف عن الكلام أو الضحك، وكلٌ ما فيه يضج بالحياة، والتوثب، والفرح.

في المرّة الأخيرة.

دخل الشرفة شاحب الوجه، وعيناه تائهتان، شاردتان في المكان، ثم ارتمتا على الكرسي ضارعتين، والكرسي جامد في مكانه لا يتحرك، فازداد شحوبه وارتعـــد، ثـــم احتقنت عيناه بشكل مخيف حتى صارتا بلون الدم، وبـــدا

رحلت المرأة فتغير.

جمرة متقدة وانطفأت.

انطوى على نفسه وصمت، ولم تعد تسمع منه إلاَّ نشيجه المكتوم الذي يقطع القلب عندما يأوي إلى فراشه في الليل، أو حين يقف أمام صورة المرأة المعلقة على الجدار.

ما عاد يغني أو يضحك كما كان يفعل في السابق، ولا يهب واقفاً كالرمح كلما سمع أغنية أو موسيقى وهو يتمايل حول المرأة ويصرخ:

-: أحبك يا امرأة.

والمرأة تنظر إليه بحب وتضحك، ومع تنامي فرح المرأة ومسرتها، وانعكاس ذلك في وجهها وعينيها وحركاتها، يزداد انبهاره باللحظة وسطوتها عليه، فيروح يدق الأرض بقوة، وحركاته تزداد خفة وفتنة ورشاقة، ولا يتوقف عن الرقص والدوران حتى يأتيه صوت المرأة مبللاً بالحب والنشوة.

-:وأنا أحبك أيضاً.

رحلت المرأة فانهدَّ.

وأصبح المنزل كئيباً وخانقاً مثل قبر.

كل شيء تغير.

المرأة رحلت.

والرجل أدار لـــه ظهره وكأنهما عـــدوان، وتركـــه وحيداً يواجه محنته القاسية، ما عاد يتذكره بالمرة، ألغـــاه من حياته تماماً، وكأن بينهما عداوات، وثارات، ودماً،

وحدها المرأة التي تجلس في الشرفة المقابلة، وحيدة وصامتة، تخفف من وحدته ومكابداتـــه، وهـــي تراقبـــه باهتمام، وتنظر إليه بعينين مليئتين بالـــشفقة، والـــدفء، والحنان، وكان ذلك يفرحه، ويبعث في داخلـــه شـــعوراً غامضاً وشفيفاً ينسيه إهمال الرجل، وأفعاله معه، ويذكره بالمرأة الطيبة التي رحلت، وتركـــت وراءهـــا الكآبـــة، والحزن، ورائحة الموت، والخراب.

***

(3) :المرأة.

اعتادت المرأة أن تشرب قهوتها في الشرفة.

وحيدة تجلس المرأة، تراقب الناس، والسماء، والعصافير، ورؤوس الأشجار العالية وهي ترتجف بين يدي الريح، بعيون شاردة، ذاهلة، حالمة، وتشرب قهوتها بصمت.

منذ أن ماتت أمها صارت وحيدة وصامتة.

انطوت على نفسها وماتت فيها رغبة الكلام، تظلُّ شاردة، ساهمة، تراقب ما حولها بفتور، وتعيش مع أصوات خفية تنبعث في داخلها مثل نبع من فضة، وتحلم هاربة من الوحدة، والموت، والزمن، والوحشة، حتى صار الحلم تفاحة القلب والروح، وعالمها السحري الملون الذي لا تمله أو تسأم منه، تعيشه بروحها وكيانها كله، وهو يحملها بين يديه فراشة من لون وحلم، ويطير بها إلى جهات الدنيا الأربع، بينما هي تلتصق به فرحة ومسكونة بالذي تراه إلى حد التلاشي والذوبان، دون أن تتحرك من مكانها أو يسمع لها صوت.

وحين تتذكر أمها، وتشتاق إلى صدرها الدافئ، وصوتها العذب الحنون، تتألم بصمت دون أن تتأوه أو تتنهد، أو يسمع لها نشيج، وحده الحزن يروح يشتجر في

منذ أن وقعت عيناها على الكرسي في الشرفة المقابلة، قفز قلبها نحوه، وانتابها إحساس غامض شدها إليه، وقربه منها وجعلها لا ترى فيه كرسياً عادياً مصنوعاً من خشب، وإنما رأت فيه شيئاً غريباً لم تره في غيره من الكراسي، أثارها، وجعلها تخاله مخلوقاً من لحم ودم، وكان ينظر إليها ويبتسم، فسرَّها ذلك، ووجدت فيه ملاذاً لها من وحدتها، وصار الجلوس في الشرفة هاجسها الذي لا تملك رداً لسطوته، لتلقي نظرة على الكرسي، أو تتأكد من وجوده، وهي على يقين أنه يبادلها المشاعر والأحاسيس نفسها التي تكنها له، وينتظر خروجها إلى الشرفة بفارغ الصبر.

في البداية ضحكت من نفسها على تعلقها بالكرسي. وفي مرات أخرى لامتها وعنفتها، لكنها عندما رأته في الحلم يسبح وسط فضاء من دخان أزرق وبخور، مرصعاً بالماس والياقوت، وله جناحان من ذهب وفضة، تحف به الجواري والغلمان مثل ملك، وعليه يجلس رجل أخضر أشار لها بيده، وعندما اقتربت منه قال لها بصوت أخضر:

-:تعبت وأنا أبحث عنك.

قالت له: تبحث عني أنا؟.

قال لها: نعم. عنك أنت أبحث.

ثم غمز لها بعينه وابتسم.

فأضاءت قلبها شمس كبيرة، وانهمر في داخلها شيء عذب ودافئ، ملأ روحها بنشوة غامضة وساحرة، وقبل أن تفيق من ذهولها ونشوتها طبع على فمها قبلة حارة وهمس لها:

-:انتظريني. سأعود.

ثم اختفى.

من وقتها صارت الشرفة ملاذها، والكرسي كل حياتها.

في الليل والنهار، في البرد والحر تخرج إلى الشرفة تحدق في الكرسي، وتحلم بالرجل الأخضر الذي طلب منها انتظاره، دون أن تتعب أو تمل.

كانت واثقة من ظهور الرجل ومجيئه، وكانت تسمع بروحها صوته وهو يناديها من بعيد: انتظريني. ووقع أقدامه فوق الدروب وهي تقطع الفيافي والقفار، الغابات والأنهار للوصول إليها، ولهذا لم يفاجئها ظهوره في الشرفة، هو وعدها وهي انتظرته، ورائحته اقتحمت روحها حتى قبل أن يظهر على الشرفة وتراه، لكنَّ ما أثارها

فجأة رفع الرجل عينيه، فواجهته المرأة في الـــشرفة المقابلة وهي تحدق فيه بعينين مفتوحتين على اتـــساعهما وتبتسم، وقد غمرها فرح طاغ لرؤيته، أضاء وجهها مثل نور ساطع، وكشف عن شوق دفين في داخلهـــا، وكأنهـــا تعرفه، أو كانت تنتظره وتتلهف لرؤيته بفارغ الصبر.

دقق في ملامحها، بدت غير غريبة على عينيه، ومما أثار دهشته أنها كانت ترتدي الثوب نفـــسه المعلـــق فـــي الخزانة، فاضطرب وقد داخله شعور غامض نحوها دفعه

ثمة ريح باردة عبرت إليه من الشرفة

داعبت وجهه، ثم اندست في شعره، ولـم تلبـث أن راحت تدور من حوله، وظل الرجل مغمض العينين بـلا حركة، لم يكن نائماً ولا مستيقظاً، كان يحلم، وكان الحلم يسكنه، ويفعل فعله فيه، وهو يعود به إلى وجوه وأزمنـة يحبها ويفتقدها بجنون، ويدفع عمره كله لو يلتقيها مـرة واحدة، فيعيشه بكل روحه وكيانه، لكن امـرأة الـشرفة اقتحمت أحلامه كالعاصفة، نفذت إليه ووقفـت مـا بـين عينيه، فاختبط الحلم واعتكر، ناور الرجل، لكن فيه شـيئاً كان يعرف المرأة ويفر إليها.

منذ أن التقت عيناه بعينيها أحس بهذا الشيء يتحرك في داخله، يتمرد عليه، وهو يشده إلى المرأة معانداً روحه المسكونة بالمرأة الراحلة، حاول أن يتمسك بـالحلم مـن جديد، لكنه انهزم، غادره الحلم دفعة واحـدة وتلاشـى، وظلت امرأة الشرفة وحدها تواجهه وتقف ما بين عينيـه،

يتردد.

ترمي إليه بوردة.

يرتجف الرجل وقد أحس بوعل صاخب راح يركض في دمه كالعاصفة، واللحظة تطبق عليه وتحتويه، يغمض عينيه من جديد، فيتعانق دمه والوردة، ويتداخل الحلم باليقظة، والمرأة تومئ إليه وتناديه، واللحظة تتوهج بين الاثنين وتزداد اشتعالاً وفتنة، والمرأة باتت قريبة منه، أقرب من السواد إلى البياض، حتى بات يشم رائحتها، ويتلمس الثوب الذي ترتديه ولا ينكره، ويرى الغابات الخضراء في عينيها بوضوح، فاندفع يركض في الأخضر حتى ارتمى وهو يلهث من التعب والنشوة، واللحظة سيدة الموقف، والرجل لا يخرج عن طوعها، مدَّ يديه إلى المرأة وهو يهجس:

-يا: إلهي. كل ما فيَّ يغادرني ويفرُّ إليها.

في تلك اللحظة.

تحركت المرأة الراحلة داخل الرجل، وشعت مثل نجمة خضراء، ما بين قلبه وروحه تحركت، وسدَّت عليه كل المعابر والدروب، فانكمش الراهن ثم توارى، وشعر بشيء راح يتكسر في داخله ويتناثر، وشظاياه تتحول

***

من رعاف الليل والحلم والذاكرة

((إن لغة التعبير الموروثـــة عـــن الماضـــي
أصبحت غير كافية للتعبير عن الجديد))

جيدو بيوفيني

من رعاف الليل والحلم والذاكرة

1-الفقد.

لوَّحت له بيدها ثم اختفت.

بأم عينيه رأى يدها المرفوعة وسط الزحام ترفــرف مثل راية في مهب الريح، وهي تلوح له وتناديه، وعندما وصل المكان كانت قد اختفت.

لم يفعل الرجل شيئاً.

لم يركض أو يصرخ، لم يناد بعالي الصوت: يا ناس، من رأى منكم امرأة كالبدر في تمامه تقف في هذا المكــان، لم ينعطف في الشوارع، والأزقة الفرعية، ولم يفــتش فــي المكان، فقط انطفأ البريق الذي شعَّ في عينيه كالجمر المتقد لحظة رأى اليد المرفوعة تلوح له، فتحولت الشوارع جثة،

كل شيء تلاشى وغاب تحت كثبان من الرمل البارد وعويل الـــريح، وروحـــه فاضـــت بالعمـــاء والمـــرارة والخراب، أسند ظهره إلى الجدار واندفع يبكي بمـــرارة، يوم ماتت أمه بكى أيضاً بحرقة حتى جف ماء رأسه، لكن أمه ظلت مغمضة العينين، جامدة، باردة، بلا حراك، فلـــم تشده إلى صدرها، أو تغني لـــه ليكف عن البكاء، وفـــي داخله كان الرمل يزحف من كل الجهات بطيئـــاً، ثقـــيلاً، خانقاً ويستوطن روحه كالجنون، واليد التي ارتفعت راية من ذهب وفضة ورنين، ثم غابت تقف مـــا بـــين عينيـــه مرفوعة وتذكره بما حدث ليلة البارحة.

***

2- ما حدث ليلة البارحة.

في الليل.

في وقت متأخر من الليل تحديداً، خرج من الحانـــة منتشياً ورائقاً، وقد زايله شعور الكآبة الذي عكر نهـــاره، وملأه بالهواجس، والقلق، والظنون.

وحيداً كان يسير في الشارع مترنحاً، وقـــد أشـــاعت الخمرة فيه النشوة، والغبطة، والارتياح، فشعر أنه شفيف كالنسمة، ندي كالماء، طليق كالأغنية، لو فـــرد ذراعيـــه

منذ أن كان طفلاً صغيراً كان يحلم بالطيران، يقضي نهاره على الشرفة يراقب العصافير، وأسراب الحمام المحلقة في الفضاء بعيون مملوءة بالدهشة، والبراءة، والافتتان، راقته الفكرة، ثم استوت في داخله فتنة وإثارة، وأيقظت حلم الطيران من جديد، فاندفع يحرك ذراعيه، حركهما بقوة، دار حول نفسه فرحاً، وقد امتلأ بشعور غامض ولذيذ وهو يرى نفسه يحلق عالياً، عالياً في الفضاء، طائراً ما بين الأرض والسماء، مندفعاً في الفضاء المفتوح أمامه كالباشق، يعابث الريح بكبرياء جارحة وشموخ، بينما الغيوم تفر من بين يديه وتتوارى ضاحكة، عابثة، وهو يحاول شدَّ شعرها، أو ركوبها بالمقلوب، والغرق في قطنها السماوي.

كان الرجل يحلم.

وكان الفضاء مفتوحاً أمامه.

والأرض على اتساعها بات يراها صغيرة وبعيدة، غادرتها الأشجار، والناس، والأنهار، والجبال، والعمارات، وتحولت إلى مساحة رمادية باهتة، جرداء، والسماء انحنت فوقه قبة من الماس والفيروز الأزرق، والنجوم المضيئة، والغيوم، لو مدَّ يده لأمسك بها، أو انحنت هي قليلاً لغرق في أزرقها الصافي الفاتن

أعاد المحاولة بأكثر من مرة، لكنَّ شيئاً لـــم يتغيـــر، وظلَّ مكانه ثابتاً مثل وتد مغروس فـــي الأرض، الأرض تلتصق به، والسماء مرفوعة بعيدة، ونائية كالحلم.

هذه المرة خانه الحلم أيـــضاً، وخذلتـــه الأمنيـــات، فضرب الأرض بقدمه، ضرب، ضرب، تأوهت الأرض وقالت له: أيها الشقي التائه لا تبالغ، فأنت تعرف أنك لن ترتفع عن الأرض إلاَّ في أحلامك.

ابتسم، ثم ضرب الأرض مـــرة أخـــرى، وانفجـــر يضحك كالمجنون، وظلت الأرض صامتة، ولم يأته منها رد.

كان منتشياً وفرحاً.

وكان يقظاً ويحلم.

وكان الليل يؤجج الحلم ويشعله في داخله، مختلطـــاً باللحظة الراهنة وتداعياتها، فيعيـــشه بعيـــون مفتوحـــة، وروح معطوبة تلوج من وجع اليقظـــة ومرارتهـــا إلـــى فضاءات الحلم وامتداداتها.

يثب، يركض، يدور حول نفسه، ثم يتوقف.

يحدق في السماء فتبهره النجوم المشرورة مثل قطيع من الخراف المضيئة، فيروح يدندن أغنية شعبية كانت ترددها أمه عندما تكون مهمومة ووحيدة، وعيناه تجوسان الليل فلا يرى إلاَّ العتمة والصمت، والأضواء الخافتة، المنبعثة من أعمدة النور، أمه ماتت في الليل أيضاً وهي تغني وتنوح، ظلَّ وحيداً إلى جوارها يبكي حتى طلع الصباح وواراها الناس التراب، رحلت. فرحلت معها رائحتها، وغاب عن البيت الغناء، تدهمه الوحشة، والكآبة، يلوذ بالأغنية، يلتصق بها خائفاً، تسمع الأغنية دقات قلبه القوية، الجامحة، الشرسة، تقول له:

-أنت خائف.

-من الليل والعزلة والذاكرة.

تتمطى الأغنية متثائبة، ويظل الرجل يرتجف بين يديها، تتمطى أكثر، يبكي الرجل بمرارة، فتنفتح عليه كالجرح النازف، ورائحة أمه تفوح منها، وتنفذ إلى روحه كقوس قزح، فيردد ملوَّعاً:

-أريد أمي. فأنا وحيد وخائف.

تنكب الأغنية عليه ملتاعة وتحتضنه، فيرى أمه مقبلة عليه من كل الجهات وهي تنادي بصوت محني الظهر:

-آن لك أن تهدأ يا ولدي.

يصرخ من جديد بضراعة: أنىَّ يكون ذلك يا أمي.

تمسك بيده وتسير إلى جانبه هادئة، صامتة، مأخوذة بصوته الذي راح يتماهى في الليل كروح تائهة تبحث عن ملاذ آمن.

ومع امتداد صوته وتدافعه كالموج، واشتجاره مع الليل، كانت الأغنية تقترب منه أكثر، تأسره، ثم تنفذ إلى داخله كالنصل، وتستبيحه كالوجع اللذيذ، فينكشف الداخل، ويتعرى المستور، وتحط يدها على كل أسراره، ومكابداته، وأوجاعه، والرجل يذوب بين يديها مستسلماً، وحلمه النائم راح يستيقظ بهدوء، وهو يتسلق جدران الروح الشاحبة.

هذه المرة يحسه قريباً منه، وهو ينهض في داخله شرساً كالسنوّر، طاغياً كالعاصفة، متوهجاً كالجمرة، يحلق ما بين روحه وقلبه، فيبتسم الرجل مسروراً يغني، يندفع الحلم يغني معه أيضاً، يتعاظم فرح الرجل، يتداخل الصوتان، صوت الرجل وصوت الحلم، يصيران صوتاً واحداً ينبعث من روح واحدة، وحنجرة واحدة. فتنهض المرأة من داخل الحلم والليل وتسكن روح الرجل وقلبه، قامة من ماء، وورد، وموسيقى، يطير الرجل فيطوح بذراعيه على امتدادهما، ثم يندفع يركض في الشارع مثل حصان السباق، والحلم يركض معه ولا يفارقه، يحمله بين

ترتجف الأغنية في حنجرته، ويتمادى الحزن فيها عميقاً وجارحاً كالسكين، وقد خذلها الرجل وأهملها، وما عاد يرى من الدنيا إلاَّ المرأة الناهضة من داخل الحلم كالنخلة المشتهاة، وهي التي اقتحمت الرجل مثل عاصفة الشتاء، وانهمرت في داخله فيضاً من ندى غطى ضفاف القلب اليابس وأعاد إليه الحلم، وحين شدته أمه من يده، كانت الأغنية خارج الرجل تماماً، منكمشة على نفسها، ووحيدة في الشارع مثل قطة جائعة ومقرورة.

يوماً قالت العرّافة له: أنت رجل حالم.

قال لها: لا أملك إلاَّ الحلم.

قالت له: إني أبشرك بامرأة مثل قمر من ماء الروح، تأتيك مثل عطش البحر من حيث لا تدري، وتتراءى لك من كل الجهات، حيث التفت تجدها بين عينيك، في النهار تطعمك قلبها وتغني لعصافيرك، وفي الليل تدخلك بساتينها الوارفة وهي تنتظر أمطارك العاصفة كأرض عطشى، وعند الفجر تنام على زندك وهي تقص عليك ما نسيت شهرزاد أن تقوله لشهريار في الليلة الأخيرة.

ورغم أنه ضحك من كلامها، لكن شيئاً فيه صدقها، وعندما راحت تصف المرأة الموعودة بإسهاب مثير للدهشة، وكأنها تقف أمامها، خيل إليه أنه رأى هذه المرأة

شدته أمه بقوة وقالت:

-أنت تحلم.

تلفت حوله وهو يعلم أنه لو كفّ عن الحلم لمات.

كان وحيداً مع الليل والشارع، وأعمدة النور الشاحبة تضيء الإسفلت الأسود، وتترك فوقه بقعاً ضوئية، شحيحة، رجراجة، والصمت يلف المكان، وتلجلج وجه العرافة وشع في ذاكرته وتوهج، فدهمه شعور غامض، واجتاحه عنوة، هذا الشعور الغامض دهمه في الصباح أيضاً، وظل معه طوال النهار، فعاد يلوذ بالأغنية ويركض وراءها، وكما يحدث في الحلم تماماً حدث الذي حدث.

فجأة نبتت أمامه امرأة من حيث لا يدري، وكأنَّ الأرض انشقت عنها، أو هبطت من السماء، فارتدَّ إلى الوراء مذعوراً وعاف الأغنية وحيدة تركض في الليل، وقد انتابه خوف سمَّره في مكانه، والمرأة تنتصب وسط

ما يراه الرجل ليس وهماً، ولا حلماً، ولا هو من تأثير العرق الذي شربه، ما يراه امرأة حقيقية من لحم ودم وروح، تقف مواجهته مثل جنية ساحرة خرجت من جوف الأرض، وعيناها تبرقان في الليل نجمتين من زمرد أخضر.

وحار الرجل فيما يفعل.

كان ذاهلاً ومذهولاً.

عاجزاً ومشلولاً.

أمه قالت له: هذا العرق الملعون الذي تشربه سيضيع عقلك.

والعرافة قالت له: أبشرك بامرأة تأتيك من حيث لا تدري.

فمن منهما يصدق؟.

أمه أم العرافة، واللحظة ضيقة وفاتكة ولا تسمح بالمناورة أو المراوغة، والخيارات، والريبة فيها توازي اليقين، واليقين فيها يشبه الشك، فالليل عسعس، والفجر على الأبواب يتمطى، وبعد قليل يرتفع صوت المؤذن،

وتمنى في تلك اللحظة من كل قلبه لو يرتفع صـــوت المؤذن، ثم ينساح في الفضاء رفاً من العصافير الصغيرة، يوقظ المدينة النائمة، ويعيد الحياة إليها، ويخلـــصه مـــن هواجسه وظنونه، لكنَّ الذي ارتفع كان يد المـــرأة، فـــدق قلبه واختبط، وقد تداخلت الأشياء في عقله وتشابكت مثل أغصان شجرة وارفة، وقبل أن يتماسك أو يقـــرر شـــيئاً، أومأت له، وكالحالم خيل إليه أنه سمع صوتها يقول له:

-اتبعني ولا تسأل.

ثم استدارت ومشت.

فمشى وراءها كالمنوم، دون تردد مـــشى. وعنـــدما تلفت حولـــه وجد الليل والشارع يمشيان معه، والمدينـــة ظلت نائمة، وصوت المؤذن لم يرتفع.

منذ زمن طويل وهو يحلم بالمرأة التي تشبه قمراً من ماء الروح وينتظر مجيئها، هو لا يعرف متى تـــأتي، ولا من أين تجيء، العرافة قالت له: تأتيك من حيث لا تدري، قد تخرج إليه من جوف الليل، أو تنشق عنهـــا الأرض، وقد تهبط من السماء، أو يصحو من نومه فيجدها ممـــددة في فراشه كالفضة المجلية، وكثيـــراً مـــا تخيلهـــا وهـــي تتسرب إليه من الجدران، والنوافذ، والأبواب، وتنفذ إليـــه سلالم من نور، وعندما تراه ذاهلاً ومذهولاً تـــدير لـــــه

-يا إلهي، أي مرتقىً صعب سأرتقي.

تشده المرأة إليها.

تشده بقوة فتطعنه حلمة النهد، وتنفذ من ظهره كالحربة، ثم تذوبه فيها وهي تهجس: هو براقك مسروج لك فامتط صهوته ولا تتردد.

لكن المرأة لم تحضر.

ولم يسرج له براق.

وظل ذلك أضغاث أحلام.

وهذه المرأة التي طلعت عليه من رعاف الليل والأحلام والذاكرة، وتمثلت له بشراً سوياً، بأم عينيه يراها

هذه المرأة تحيره.

يحسها قريبة وبعيدة، يعرفها ولا يعرفها، واضحة ومبهمة مثل يقينه المضطرب، حتى بات يتصورها كابوساً يعيشه بعيون مفتوحة، وروحاً مجنونة تائهة وحالمة، أو جنية عابثة ماجنة تسترت بالليل وخرجت تقضي نزواتها الطائشة.

أمه قالت له: الجنية التي تخرج في الليل تظل تبحث عن رجل فحل يعجبها، حتى إذا وقعت عليه تمثلت أمامه امرأة فاتنة، وقبل أن يعي ما يحدث أمامه تطلق روائحها في المكان، فتنفذ الرائحة الخشنة إلى روحه فينقاد إليها كالمسحور، وقبل أن يطلع الفجر أو تصيح الديكة تطويه في صدرها، ثم تنفذ به إلى الأرض السابعة، فلا يرى وجه مخلوق بعدها، أو يصعد إلى ظاهر الدنيا حتى يموت، وهجس مرعوباً:

- وماذا لو كانت جنية بالفعل.

فارتجف من رأسه إلى قدميه، وانتابه ذعر حقيقي، وقد تصور المرأة جنية تريد اختطافه ودفنه تحت الأرض، وفكر في الفرار، لكن المرأة التفتت نحوه وكأنها عرفت ما يفكر به، ارتبك، تعثرت خطواته وهو يرى

لكنَّ ما أذهل الرجل وطير صوابه هو هـذا البـاب الكبير الهائل الذي ظهر فجأة وسد الشارع، طوال عمـره لم يرَ هذا الباب المزين بالزخارف، والنقوش، والرسـوم، محاطاً بالأشجار اليابسة العارية، وتتنـاثر فـي محيطـه كثبان رملية زاحفة، وشواهد قبور تجمعت فوقها الغربان الناعقة والبوم، فعاد يرتجف من جديد.

كل شيء غريب ومثير وغامض فـي هـذه الليلـة، وكالحالم رأى المرأة وهي تنسل من الباب إلـى الـداخل كالضوء وتشير إليه، فاندفع وراءها، دفع البـاب بيـدين مرتجفتين، فصرَّ صريراً وحشياً أخافه، وانفتح عن فراغ هائل لا حدود لـه ولا قـرار، يتـصاعد منـه البخـار والضباب، وكان ثمة أصوات غامـضة تـشبه العويـل، والمرأة عائمة في الفراغ، فارتدَّ إلى الوراء مذعوراً يريد الفرار، وقد انخطف لونه وشحب، لكنَّ عشرات الأيـدي الغامضة طوقته مثل نبات وحشي، وراحت تجـره إلـى الهاوية، فرأى الموت واقفاً بانتظاره، فصرخ مـن كـل رأسه:

لا أريد أن أموت، أريد أمي، ثم أغمي عليه.

في الصباح.

كان ملقى في العراء إلى جوار سور المدينة الأثري، وشواهد القبور تحيط به من كل اتجاه.

***

3- منافي الروح

تمدد الرجل في فراشه كالميت.

وملايين الرؤى والأسئلة الحائرة تحاصره، وتتكاثف في روحه وذاكرته كالضباب، وتملؤه بالحيرة، والتمزق الموجع والمرارة والعذاب، يغمض عينيه وهو يتقلب في فراشه كالطعين، هارباً مما فيه. لكنَّ ذاكرته تخرج عن طاعته، وتتمرد عليه، تجافي النوم وتظل صاحية، مفتوحة العينين ومزحومة بالصور والأسئلة المحيرة.

وكالحالم شعر بالباب يفتح.

بين اليقظة والنوم كان، وعيناه مغمضتان، وبشيء يشبه الضوء ينسرب إلى الأرض بهدوء وصمت، وحين فتح عينيه وجد المرأة تقف هالة من ضوء أخضر في وسط الغرفة.

-قال لها: أنت مرة أخرى؟.

-قالت له: دائماً أنا.

-قال لها: من أنت؟.

-قالت له: وتنكرني أيضاً!.

فغمره خجل عارم، وصمت.

بينما عاود الحلم نهوضه في القلب، والروح، والذاكرة، والمرأة غزال أشهب تركض في جهاته الأربعة وتتوهج.

-قال لها: لقد انتظرتك طويلاً.

-قالت له: دائماً كنت معك.

-قال لها: كيف الوصول إليك؟.

-قالت له: أنا أقرب إليك من روحك، مددت إليك سلالم النور فاصعد.

فتحرك الرجل وخطا باتجاه المرأة خطوة، خطوتين، ثلاثاً لكنَّ المرأة ظلت بعيدة كالسراب، ركض بعزم جواد بري مطارد حتى ارتفع لهاثه، وتصبب عرقه، ومع هذا ظلت المرأة بعيدة، وهجس في داخله: لن تفلت مني هذه المرة.

واندفع نحوها من جديد، وخيل إليه أنها هي أيضاً كانت تركض، فاتحة ذراعيها على اتساعهما، وحين ظن أنه احتواها في صدره فرَّت من بين يديه كالسمكة المذعورة، وظلت بعيدة ونائية، تقف على جبل عالٍ،

أمه أيضاً كانت تحب الغناء.

سلوتها الوحيدة كان. وملاذها من قسوة الأيام ومرارتها، صوتها عذب وحار، ناشج وموجع، شرس وحنون، يخرج من القلب وينفذ إلى الروح كالمنافي، واشتاقت روحه إلى أمه، وصوتها العذب الحنون، ولأنه يعرف استحالة ذلك، اختنق بالمرارة والنشيج.

-قال لها: اهبطي.

-قالت له: ذاك معراجك... فاصعد.

-قال لها: اهبطي.

هبطت الريح والعرافة، وظلت هي تشرع ذراعيها وتغني مثيرة شوقه وحنينه إلى أمه الراحلة، ناداها، ظلت المرأة ياقوتة مشعة في الجهات بعيدة ونائية، فامتلأ الرجل بالغضب والمرارة، وحقد على الحلم وكرهه حتى الموت، دقَّ على صدره بقوة وصرخ:

-اهبطي وإلاَّ قتلت الحلم.

ظلت المرأة على حالها وكأنها لم تسمع شيئاً، وحده الحلم سمع تهديد الرجل، ارتجف، ثم انكمش على نفسه من الخوف، شعر الرجل بذلك، والمرأة ظلت بعيدة ونائية كالسراب، فلم يتردد في سحب الحلم من داخله، فانقاد له

أغمض عينيه بهدوء وهمد.

وقد فاضت روحه بالمرارة والنشيج، وتراءت له أمه من بعيد تلوح بيديها الاثنتين وتناديه، وفي داخله كان ينهض بطيئاً وشرساً صدى أغنية كانت ترددها أمه عندما تكون وحيدة وحزينة، فالتف بعباءة من رعاف الليل والحزن الذي عرف أنه سيكون رفيق دربه الطويل، الطويل، وراح ينتحب بمرارة.

***

من سيرة الدم والخراب

((سألتك آنَ عذَّبني الصدى والجُرحْ
وقايضني لصوص العمرِ والمحــن
تطاعن خيلهم وتموت))

حسان عطوان

من سيرة الدم والخراب

قال الرجل الملتحي: المرأة لي.

قال الرجل النحيل: بل هي امرأتي أنا.

وكانت المرأة تقف على مرتفع صغير في مواجهة الاثنين، هادئة، صامتة وتبتسم، وعيناها تسوحان في المدى، ترمقان الجهات، والسماء، والغيوم، وأسراب السنونو، والعصافير، ثم تحطان عند رؤوس الأشجار العالية وهي ترتجف بين يدي الريح، وكأن ما يحدث بين الرجلين لا يعنيها في شيء، وكلما تعالى صياحهما واشتد، كانت ابتسامتها تتسع وتكبر، وتبرق عيناها بوميض خاطف، بينما تبدأ الريح في النواح مثل امرأة ثكلى تبعثر أحزانها على الأرصفة والنوافذ والطرقات.

اندفع الرجل الملتحي يريد الوصول إلـــى المـــرأة، لكن الرجل النحيل اعترضه، وســـد عليـــه الطريـــق، والمرأة تقف في مكانها هادئة، مـــضيئة مثـــل شـــمس الصباح وتبتسم.

–قال الملتحي: ابتعد عن طريقي.

–قال النحيل: لن تصل إليها إلاَّ على جثتي.

فازداد ارتجاف الأشجار واضطرابها، وفاحت من بين الاثنين رائحة حقد وعداوة كريهة، دامية وشرســـة وانتشرت في المكان.

المرأة شمت الرائحة، ومع هذا ظلت هادئة ساكنة، ترنو إلى الفضاء بعيون ذاهلة، حالمة وتبتسم.

–صرخ الملتحي: قلت المرأة لي. يعني أنها لي.

ما قاله وصل المرأة ونفذ إلـــى روحهـــا الذاهلـــة كالومضة الخاطفة، فحركها وأثارها، وأيقظ فيها الأنثى التي كانت تتململـــل فـــي داخلهـــا بخجـــل، فتمطـــت، وغمغمت، ثم أنَّت في غنج وتأوهت، ففاحـــت رائحـــة الأنثى منها، وانساحت في روح الرجل جمرة من نـــار متقدة، فسال لعابه واضـــطرب، ثـــم ابتـــسمت دون أن ترفع عينيها عن الرجل الملتحي، وحـــين ابتـــسم هـــو الآخر وعيناه تتأملانهـــا باشـــتهاء داعـــر، وتزحفـــان

فازداد التوهج في عينهـا، وتحولـت إلـى قامـة خضراء، باسقة ومضيئة، وراحت ترتعش مثـل وردة ذابلة بللها المطر.

وحين التقـت عيناهـا بعينـي الرجـل النحيـل، اضطربت، وقد رأت في العينين ريبة وعتاباً ومـرارة، حاولت أن تتماسك وتحافظ على توازنها، لكنها أخفقت، فالعينان تحاصرانها وتنفـذان إلـى داخلهـا كـالوجع المميت، تعريانها تمامـاً، فينكـشف داخلهـا للرجـل ويتعرى، ويصبح للعينـين وقـع الرصـاص عليهـا، فتنكمش على نفسها مثل قطة مذنبة وخائفة، وهي تحس بانطفاء حاد يجتاحها، وبالتوهج يتلاشى مـن عينيهـا ويغيب، فالرجل كان أغنية المرأة، والمرأة كانت وردة عمر الرجل وروحه.

-يقول لها: أنت روحي.

-تقول له: وأنت قلبي.

وعادت المرأة طفلة في التاسعة من عمرها، تغافل

وحين يرتفع صوت أمهـــا تنـــادي عليهـــا تـــزداد التصاقاً بالطفل وكأنها تريد أن تنفذ إلى داخله، وتختبئ فيه.

-يقول لها: إنها أمك تنادي عليك.

-تقول له: ولكنني أريد أن أظل معك.

ينظر إليها.

في عينيها رجاء وتوسل ودموع.

يطوقها بيديه الصغيرتين بحنان، تـــزداد التـــصاقاً وتشبثاً به، يدفن رأسها في صدره، بينما هي ترتجـــف في حضنه مثل أرنب صغير وترتعش.

فازداد عذاب المرأة وتشظيها، وغادرهـــا لونهـــا الأخضر المضيء، فأطرقت برأسها إلى الأرض، ولـــم تعد تجرؤ على النظر في عيني الرجل، وهي تشعر أنَّ

ارتجف ثانية وقد شعر بخوف غريب يجتاحه، وقبل أن يفعل شيئاً، أرعدت السماء وأبرقت، وهبت ريح عاصفة مجنونة، اندفعت في كل الجهات، وثار الغبار، فاعتكر الفضاء حتى تداخلت الأرض بالسماء، ودوّت طلقات نارية في الغابة، فامتلأ الفضاء برائحة البارود، وأسراب الطيور الهاربة من الموت.

–قالت الجهات: ثمة ما ينذر بالخوف.

–قالت الوردة: أنا خائفة.

وأجهشت بالبكاء.

فازداد عصف الريح وطغيانها، وانحنت كل الأشياء أمامها مرتجفة إلا النخلة ظلت باسقة وشامخة، دوَّت الطلقات النارية من جديد، فتلون ماء النهر بدم الغزالة القتيلة، فبكى النهر مرعوباً وصاح:

–من يوقف هذا الموت عني.

انحنت النخلة بحنو وعانقت النهر، ضمته إلى

وحين مرت بالمرأة دارت حولها مـــرات ثلاثـــاً، والمرأة ساكنة، واجمة، ذاهلة وكأنهـــا تعـــيش خـــارج اللحظة تماماً، تنظر إلى الريح تارة، وإلى الرجلين تارة أخرى، وفي الرابعة ضمتها إلى صدرها، كـــان قلـــب المرأة خائفاً وروحها تبكي، شدتها إلى صدرها ثانيـــة، قبلتها من ثغرها، ثم زرعت في شعرها وردة سوداء.

ظلت المرأة على حالهـــا، منهوبـــة مـــن الـــداخل والخارج، ونحيب النهر ينفذ إلـــى روحهـــا كالطعنـــة، شعرت الريح بعذاب المرأة وحيرتها، ومـــع هـــذا لـــم تتوقف. فقط:

لوحت بيديها وتابعت المسير، فقد لاح لها النعمان بن المنذر من بعيد، وحيداً يضرب في الصحراء تائهـــاً ومهموماً، يريد الوصول إلى المدائن والمثول بين يدي كسرى، وحيث التفت أو استدار طالعـــه وجـــه هنـــد، ونفذت إلى روحه رائحة الحيرة. ورأت الريح غمامـــة حمراء تلاحق النعمان مثل ظله، ولا تفارقه بالمرة.

– فهجست الريح في داخلها: الملك يسير إلى موته برجليه.

–وهجس النعمان في داخله: أموت ولا تكون هند لكسرى.

لكن النعمان لم يسمع ما قالته الريح، فبقدر ما كانت الريح قريبة منه، كان النعمان بعيداً ونائياً عنها، بينهما مسافة ألف عام ويزيد، الريح تعرف ذلك، وتعرف أن لا شيء يشغله إلاّ مصير ابنته هند، ومحنة الاثنين مع كسرى، هذه المحنة التي تسكنه مثل دمه، وتنأى به بعيداً عن كل ما حوله، فانقبض قلب الريح حزناً على النعمان، ثم استدارت إلى الخلف، وجدت الرجلين مازالا في مكانهما، وأصواتهما تزداد حدة وغضباً، شراسة واشتباكاً، والمرأة تقف في مكانها صامتة حائرة، مضطربة، وفي داخلها يدور صراع شرس وعنيف، بينما رائحة الدم تزداد كثافة في المكان.

وحين ترامحت عيون الثلاثة في لحظة واحدة،

-أموت ولا تكون لك.

-وهذا ما سيكون.

ذعرت البراري والسهوب.

وارتجفت أشجار الغرب، والقطا والأيائل والحمام، وضاقت الأرض بالرجلين على اتساعها، فتدافعا، ثم تماسكا بالأيدي وكل منهما يصرخ في وجه الثاني:

المرأة لي. والمرأة واقفة في مكانها، تنظر إلى الرجلين بصمت، ولا تفعل شيئاً بالمرة.

وكلما ازداد اشتباك الرجلين والتحامهما، كانت تزداد اضطراباً وتوتراً وحيرة، وتومض عيناها الذاهلتين بوميض غريب، سرعان ما ينطفئ ويتلاشى، وتغرق روحها الذاهلة في الظلمة.

بدا التعب والإرهاق على الرجلين، وتصبب العرق منهما غزيراً، حاول كل منهما رمي الآخر، لكنهما أخفقا، وازداد عويل الريح وحشية، فهيَّج العويل فيهما جذوة الحقد والعداوة. وصوت الرصاص في الغابة البعيدة لا يتوقف، ودم الطرائد يزداد في ماء النهر، ترتجف الغابة، يرتجف النهر أيضاً، يدير وجهه في الجهات فيطالعه الدم حيث استدار، دم مفزوع وخائف يلطخ الأبواب، والبيوت، والجهات، وأجنحة الحمام، ويزحف باتجاه الأشجار، وشواهد القبور، ودور العبادة، ووجوه الأطفال، والأحجار، والنخلة وحدها تقف باسقة وشامخة، مضيئة ومتوهجة، فاتنة وعذبة، ورائحة الموت تملأ المكان.

يتدافع الماء على الضفتين ثم يرتد وقد علاه الحزن، وامتلأت روحه بالخراب، والخيبة، والمرارة.

انتضى كلٌّ منهما خنجره واشتبكا، تداخلا، ثم التحما، فالتحمت الأيدي، والأرجل، والخناجر، والعيون، وتداخلت في عراك شرس، مميت، فما يحدث

–لقد قتل ذياب.

فاتسعت ابتسامة أبو زيد، وازداد توهج الفرح فـــي عينيه.

تأوه الرجل النحيل وعيناه معلقتان بالمرأة، والمرأة واقفة في مكانها لا تفعل شيئاً، لم تصرخ أو تبكي، لم تشق ثيابها أو تستغيث، فقط ارتعش قلبها قليلاً، وامتلأت عيناها بالفزع والذهول والدهشة، حاول أن يقول شيئاً، فامتلأ حلقه بالدم، حاول أن يظل واقفاً لكنه هوى وسال دمه على الأرض خائفاً ومذعوراً، ثم توقف عند قدمي المرأة ينوح، فركض قلب هند ابنة النعمان إلى مدائن كسرى يعانق دم الملك القتيل ويبكي عليه.

ارتجف الرجل قليلاً.

ثم اختلج مرتعشاً كطائر ذبيح.

ثم همد.

وضع الرجل الملتحي قدمه فوق صدر القتيل ورفع رأسه إلى السماء وهو يدق صدره بيديه المخضبتين بالدم وراح يعوي مثل ذئب أجهز على فريسته، فارتجفت الغابة، وتراجعت إلى الوراء مذعورة، هاج ماء النهر واختبط، وتدافع على الضفتين من جديد، لكن الضفاف خانته هذه المرة أيضاً، ازداد هياجه واختباطه، وراح يدور في مكانه في دوامات متقلبة، عنيفة، صاخبة، وغاضبة، تظل الضفاف على عنادها،

-يا إلهي.

لقد وصل الدم إلى السماء

غطى وجهه بيديه الاثنتين، وراح ينتحب بمرارة.

انحدرت المرأة من فوق التلة، ناحت فوق القتيل فطالعتها عيناه الشاخصتان إليها حيث تحركت، وقد امتلأتا بالمرارة، والذعر والعويل.

والرجل يدور حول الجثة ويعوي.

وكان قلب المرأة في تلك اللحظة ورقة يابسة في مهب الريح، والعينان تطاردانها وتزرعان فيها الخوف، والذهول، والمرارة، والرجل يدور ويعوي، ويزداد هياجاً ووحشية، ودم القتيل ينوح عند قدميها.

شقت ثوبها نصفين، نصف دثرت به الجثة،

❋❋❋

شجر الوهم

((إنّ الفن لا يرينا ما هو منظور، بل
يجعل ما لا نراه منظوراً))

بول كيلي

شجر الوهم

1-شجر الحلم

قال لها: أحبك.

وقبل أن تعانقه، وتفرش روحها على صـــدره مثـــل سجادة الصلاة، وهي تهجس لـــه: وأن أحبـــك أيـــضاً... تلاشى الرجل وغاب، تاركاً في روحها الحيرة، والمرارة، والحزن، والظنون، ومع هذا ظلت نائمـــة، تتقلـــب فـــي فراشها وتحلم.

دائماً يفعل بها ذلك.

فجأة يأتيها.

بدون علم أو مواعيد، وحين تهب لملاقاته يغيب ولا

هي لا تعرف كيف يأتي ولا كيف يغيب، وهذا ما يحير المرأة ويعذبها، ويتركها نهباً للهواجس والظنون، وهي في عزّ نومها يعبر ما بين روحها وعقلها، شفيفاً كالضوء، ندياً كالقطرة، باسقاً كالسروة، وجارحاً كالخنجر، بينما وقع أقدامه يتناهى إليها من بعيد، وقبل أن تفعل شيئاً، تجده واقفاً أمامها بقامته الطويلة، وعينيه الجارحتين ورائحته التي تشبه رائحة البراري في الربيع الناهض إلى خصب عاشق...

وعندما يرى انبهارها ودهشتها، يقترب منها كالنسمة، يطوقها بذراعيه دون أن ينبس بكلمة واحدة، بينما هي ترتعش بين يديه فرحة، مضطربة وخائفة، وحين يطول الصمت بينهما، ويصبح له شكل العماء في الروح، يقول صوتها الخفيض المرتعش:

ــ من أنتَ؟

يدور الرجل من حولها صامتاً، وعيناه لا تستقران، تمران على الشبابيك الخشبية، والمرآة الصدئة المعلقة على الجدار الطيني الباهت، والبساط الصوفي القديم،

ــ أرجوك، قل لي من أنت؟..

يظل صامتاً كشاهدة قبر.

ينظر إليها بحنان ويبتسم، فتزداد حيرة واضطراباً، والريح العاوية في الخارج توترها، وتملأ روحها المضطربة بالهواجس والخوف والظنون.

يقول صوتها: هل أنت أخرس؟..

تتسع ابتسامته وتكبر، ويضيء وجهه وعينيه ما يشبه الفرح، والمرأة مشدودة إلى وجهه، تنتظر ما سيقوله، لكنه بدل أن يقول لها شيئاً يعينها على هواجسها، ويخلصها مما هي فيه من اضطراب ولهفة وعماء، يخرج قلبه من صدره، يغمس إصبعه بدم القلب، ويكتب على الجدار الطيني ((أحبك يا امرأة))، ثم يقدمه لها، والمرأة جاحظة العينين ومبهوتة.

يمددها في فراشها، ويتمدد إلى جوارها كالطيف، فترتجف، يشدها إلى صدره، فتجمد بين يديه، يلاحظ الرجل اضطرابها وما تعانيه، يمرر يده على وجهها وعنقها، ترتبك مثل طفلة صغيرة، وتحس بخدر يسري في جسدها يشلها، ويمنعها من الحركة أو الكلام، فتغمض عينيها، وثمة شيء غامض وعذب راح يدب في داخلها ويتحرك مثل قطيع من نمل ناعم، تظل ممددة في فراشها، مغمضة العينين، ساكنة وتحلم.

وحين تشعر بأصابعه تتحرك فوق جسدها، يرتعد دمها، ويزداد الحلم إيغالاً في روحها، والأصابع تزحف فوق تضاريس الجسد بارتجاف ناعم يعمق خدرها، ويفتح جسدها مثل أرض عطشى فاجأها المطر بعد طول انتظار، فترتعش، وتتقلب في فراشها وهي تترقرق بالنشوة وفتنة الحلم، وتطير كالقطاة في فضاء واسع من ضياء وموسيقى وزمرد أخضر وزغاريد، يلامس الرجل ارتعاشها، وتزداد الأصابع اللينة رشاقة وإثارة وهي تعابث الجسد وتهيجه، وعندما تطبق كفه على نهدها، يضطرب النهد ثم يشمخ كالحربة المسنونة، فتتأوه بانتشاء من أعماقها، والكف تلتف حول النهد الناهض كالأفعى وتهصره، فتزداد تأوهاً والتصاقاً به، ولهاثها يتحول إلى فحيح حارق، بينما جسدها يتفتح بين يديه كالوردة.

في تلك اللحظة تماماً.

في اللحظة ذاتها يغادرها الرجل ويرحل.

***

2. شجر الروم

تعبت المرأة من تصرفات الرجل وأفعاله، تمضي نهارها تنتظره، تهيء كل شيء لاستقباله: الورد، والبخور، والقهوة المهيلة، وفرح القلب والروح، والأصابع المخضبة بالحناء، وتفتح الجسد واختماره، ولا يأتي.

ومع هذا تحبه.

لأنه وحده الذي يشعرها بالحياة، ويملؤها بالانتظار والحلم والترقب، ووحده الذي خَضَّر عمرها، بعدما كان يباساً بلا لون أو طعم أو رائحة، هو الملاذ والمتاهة، الفيء واللظى، سر الفرح والبكاء في روحها، وقمر لياليها المعتمة، ومع هذا لا يأتيها إلاَّ عندما يريد، متدثراً بالعتمة والأسرار والغموض، غير عابئ بانتظارها وشوقها وبما هي فيه، ما يفعله معها يعذبها، يطير عقلها من رأسها، ويدوف المرارة في روحها.

كانت المرأة تتمزق من الداخل.

بعد كل انتظار تتمزق ويعروها الجنون، حـــائرة لا تعرف ما تفعل، وثمة نشيج شرس ينهض فـــي داخلهـــا يشظيها ويملؤها بالعتمة والخراب، فتحس بالأرض تدور من تحتها، تحاول أن تتماسك، لكن دوران الأرض أقوى منها، فتدور هي أيضاً، كل شيء من حولها يـــدور فـــي سرعة خاطفة ومجنونـــة، الأرض، والـــسماء، والنهـــر، وأشجار الغرب، والجسر، ورائحة الرجل، والعـــصافير، وهي عاجزة عن هذا الدوران، أو الخروج من دائرتـــه، فتنهار على الأرض محطمة.

تتمدد المرأة في فراشها، متعبة، مهـــدودة، ومـــا إن تغمض عينيها وفي داخلها يدور صراع عنيـــف يهزهـــا ويصدع رأسها، حتى تدهمها رائحة الرجل، تتقلـــب فـــي فراشها خائفة، مضطربة، لـــم تكـــن المـــرأة نائمـــة ولا مستيقظة، كانت بين النوم واليقظة، مخدرة وناعسة، ومـــا إن تبدأ أجفانها تثقل حتى يخيل إليها أن ثمة رجلاً أخضر يخرج من جوف العتمة ويتقدم نحوها، تحاول النهوض أو الحركة، لكنها كانت عاجزة، وعندما وقف بين يديها كانت قد استوت خارج محيط اليقظة تماماً، وأعطت نفسها للحلم وذابت فيه.

ــ تقول له باكية: جئت . أخيراً..

كعادته يظل الرجل صامتاً.

ــ تقول له: أنت لا تحبني.

لم يرتبك، أو يفاجئه السؤال.

يبتسم بغبطة، وتبرق عيناه بوميض عذب يمس قلب المرأة مثل رذاذ دافئ، فيخضر داخلها ويتندى، ويصبح للحظة طعم الفرح ورائحة القرنفل، وكل منهما يحدق بالآخر بافتتان ولهفة، يمسكها من يدها، وينطلقان يركضان في البراري، يقطعان الوديان والقفار والسهول غزالين من فرح وصخب، والأرض لا تتسع لهما، يخوضان في النهر، ويتراشقان بالماء، والمرأة تتشبث بالحلم وتذوب فيه، بينما الماضي، كل الماضي يفر من ذاكرتها ويغادرها بالمرة، المرارة، والوحدة، والخوف، وأنين الروح، وقسوة الأيام، والوجع، والوحشة، والعذاب، حتى غرق أمها في النهر، وجنون أبيها الذي لم يتحمل عقله الصدمة، فاعتزل الناس في هذا المكان النائي عن المدينة، وظل يطارد النهر وينادي عليها حتى مات.

هي لا تتذكر شيئاً، ولاشيء تريد أن تتذكره، فاللحظة الراهنة حياتها كلها، لا تريد الخروج منها أو تعكيرها، يحملها الرجل بين ذراعيه ويدور بها، وهي تلتصق به

ترتطم الريح بالنافذة.

تظل المرأة مغمضة العينين ومتمسكة بالحلم، تـــدلف الريح إلى الداخل من النافذة المفتوحـــة، ينـــذعر الحلـــم ويتبعثر في الغرفة، تركض وراءه ملهوفة ومجنونة تنادي عليه، والحلم يتبعثر ويضيع، فتهب من فراشها مـــذعورة تشهق، والعرق يتفصد من جسدها المرتجف، والفزع يملأ العينين فلا تجد إلاَّ العتمـــة والـــريح وصـــوت النهـــر المخنوق.

***

3. شجر الماء

تقف أمام النافذة ضائعة، حائرة، قشة في مهب الريح بلا ملاذ أو سند، كل ما تراه مكفن بالـــصمت والـــسكون والسواد، والريح هدأت، فتجعد وجه الجهات مثل قـــشرة يابسة، لا تثير في النفس إلاَّ المرارة، والوحشة، والموات، وحده النهر كان يلمع في الظلمة ويبرق مثل ســـيف مـــن فضة، فتشعر بشيء غامض يشدها إلى النهـــر، ويقربـــه منها، تثبت بصرها عليه، تجده يجري في رأســـها مثـــل

ــ أكرهك أيها الرجل.

فيأتيها الصوت من كل اتجاه:

ــ وأنا أحبك أيتها المرأة.

فيردد الليل والأشجار والهضاب والوديان مــا قالــه الصوت، فتصرخ بصوت مختنق وناشج:

ــ وأنا أحبك أيضاً ولا أكرهك.

والصوت يتماهى في الفضاء مــن حولهــا ويطيــر أسراباً من القطا والعصافير، ويطبق عليها حيرة وتلفتــاً، مرارة وجنوناً، فحيث استدارت يأتيها الصوت ويــصدِّع رأسها، والنهر لا يتوقف عن التدفق والجريان في داخلها، يتدفق ويبرق، فيضيء وجه الرجل يلوح بين ثنايا الماء.

تقول للنهر: تعبت.

يقول النهر لها: تعالي.

تجمد في مكانها وتتسمر

وعندما يرى النهر ترددها، يصير فماً واسعاً يناديها، غابة من الوجوه والأيدي الناهضة مثــل أعنــاق الجيــاد الصاهلة تلوح لها وتناديها، تخلع ثيابها وتلقي بها للريح، ثم تنطلق كالسهم تركض باتجاه الماء فاتحــة ذراعيهــا، بينما النهر يتلجلج في عينيها ويبرق رجلاً أخضر، يبتسم لها بحنان، وينتظر وصولها بفارغ الصبر.

***

مدارات الزمن الموحش
" ثلاثيـــة "

1. **المدار الأول: الوحشة**
2. **المدار الثاني: الجنون**
3. **المدار الثالث: الموت**

نـشيد المدار الأول... خراب الذاكرة

***

ضيعكَ الخوف والجهات المخاتلة

ولم تجد المزارات، ولا البخَّور، ولا نــشيج الــروح عابقاً بالحزن،

ولا التمائم، ولا هدهدة الليالي العاتمة.

وجع يسكن في فِناء الروح.

ونحيب يئن في القلب، نصفه موت، وباقيه عذاب.

وهذه الشرفات الناهضة في دمك مثل أعناق الجيــاد الصاهلة، وهم تدثر بالوداعة،

وخراب الذاكرة.

يا أنت.

لا تنم على سرير الحلم.

ولا يخدعنك وميض برق زائف، ولا رماد العاصفة.

كل ما حولك موت.

ويباس.

وخراب.

ومقابر.

ومنافي موحشة.

فانثر طقوسك حتى تصير برقاً جارحـــاً فـــي ليـــل النشيج،

ولا ترتهن للخضرة الزائفة.

***

المدار الأول: ... الوحشة.

***

مثلما تفعل الخيول البرية في ساعة الخطر فعل.

تلفت حولـــه بريبة وحذر، وقد اشتجر فـــي داخلـــه الخوف والفزع. فثمة شيء غريب وغامض يحدث مـــن حولـــه، شيء ما يحس حركته المريبـــة تقتـــرب منـــه، وتحاصره مثل قطيع من الذئاب الجائعة، دون أن يـــراه، ورائحته الشرسة تملأ المكان، فيـــزداد خوفـــه وهلعـــه، وتتعاظم في روحه الهواجس المفزعة والظنون.

تلفت.

وحيداً كان في المقبرة، وصوت الريح العاوية يزيد المكان وحشة وغرابة، ومن حوله ارتفعت شواهد القبور كالأشباح الغامضة في الليل، وحده قبر أمه كان بلا شاهدة، والجهات بدت موحشة، كئيبة، مخيفة وضيقة كثقب الإبرة، تزحف نحوه مجللة بالسواد، والوحشة والعويل.

ارتجف الرجل.

وسرى الخوف والوحشة في كيانه كله، وهاله اقتراب الجهات منه مثل طوفان أسود، والحركة الغامضة المريبة ارتفع إيقاعها وبات يصل إليه بوضوح، مختلطاً بعواء الريح وجنونها، حتى خيل إليه أنَّ آلاف الأشباح والمخلوقات الغريبة كانت تنهض من داخل المقبرة، حاملة أكفانها على أكتافها متجهة نحوه، فاتحة أشداقها ملوثة بالدم والتراب، والرائحة النتنة.

فاندفع يركض خائفاً مذعوراً، والمقبرة تركض خلفه، ووقع أقدامها يثيره، ويطير عقله، وشواهد القبور انتصبت حيث التفت أو استدار، حتى غطت وجه الأرض تماماً، وفوقها تنعب البوم والعقبان، والجهات هاجمتها خيول غريبة الشكل تعتمر خوذات نحاسية وتتدرع بالزرد

تساندها الريح العاصفة والفضاء المحترق، حاصرتها، وسدت عليها المنافذ، والمعابر، والدروب.

راوغت الجهات يساندها الماء، والريحان، واليخضور، لكن الخيل اجتاحتها قطعاناً من البرابرة، والتتار، والوحوش الكاسرة، والطواغيت، فانتثر دمها مذعوراً هارباً من زمن الريح السوداء، زمن القنص، والاغتيالات، والإبادة، زمن الحروب، والعماء، والدم، زمن المذابح، وموت التاريخ، وفقدان الذاكرة، يلوذ بشقوق الأرض، وجذوع الأشجار، فترتجف الأرض فزعاً، تميد تحت قدمي الرجل وتتجعد، ويغطي الكون عماء مخيف.

والرجل يركض.

دخل المدينة يركض، فأثار عدوه وفزعه انتباه المارة، فتوقفوا ينظرون إليه باندهاش وغرابة، والرجل يركض، والأرض تتكمش وتتجعد، تجاوز الشوارع، والحارات، والحدائق، والسيارات، والمدارس، ودور السينما، والنساء المحجبات وهو يركض.

فجأة توقف أمام امرأة جميلة توقــف وراح يبكــي، فامتلأ قلب المرأة حناناً وشفقة.

قالت له: أنت تبكي.

قال لها: خائف.

قالت له: وممن تخاف.

قال لها: من اليباس ووحشة الروح.

قالت له: أنت متعب وتهذي.

قال لها: أريد أمي.

قالت له: أنا أمك.

قال لها: ولكن أمي ماتت.

قالت له: أنا أمك وأنت ولدي.

فانتشى الرجل فرحاً، وهبت عليه رائحة أمه من كل الجهات، وسرت في روحه ضــوءاً أخــضر أضــاءها، وملأها بدبيب غامض، دافئ ولذيذ، خدَّره وجلب النعــاس إلى عينيه، وطالعته أمه عذبة كالصباح.

صاح: أمي.

صاحت بوله المشتاق ولوعته: ولدي.

وتعانقا رعداً وبرقاً.

ضمته إلى صدرها بحنان، شدها إلى صـــدره بقـــوة وأجهش بالبكاء، فأخرجت ثديها ودفعته في فمه، فتـــدفق الحليب حاراً، شهياً مثل رائحة أمه يرد الروح، فيـــرتعش بلذة، والنعاس يستولي عليه، تثقل أجفانه، يسند رأسه في حضنها، مغمضاً عينيه على صورتها، ويتعلـــق بـــشرفة الحلم. فتمتد أصابعها النحيلة تجوس في شعره، ويرتفـــع صوتها بالغناء.

ينساح الخدر في كيانه كله، ويشف كالنسمة، يغادره الحزن، والهواجس، والمرارة، والجنون، ويزداد ارتعاشه والتصاقه بأمه، ثم يختلج ممتلئاً بالرائحة والحلم والغناء.

ينهض الماضي ويقف ما بين روحه وقلبـــه، فيعـــود الرجل طفلاً يخوض في برك الوحل حافياً، يسبح في ماء النهر كالسمكة، يطـــارد القطـــط والعـــصافير والكـــلاب الشاردة، ويركض وراء أمه فـــي الـــشوارع، والأزقـــة الضيقة الموحلة، والحارات، وهي تدق أبـــواب البيـــوت الطينية وتنادي بصوتها العذب الجميل علـــى بـــضاعتها الرخيصة من الحناء، والمرايـــا الـــصغيرة، والأمـــشاط العاجية، وقلائد الخرز الملـــون، والمناديـــل المطـــرزة بالحرير، دون أن تغيب عينيها عنه لحظة واحدة.

كانت تخاف عليه أكثر من روحها لأنـــه كـــان كـــل حياتها بعد موت والده، مثلما كانت هي روحه وكل حياته.

ولأن الرجل كان يعيش الحلم حقيقة، والحقيقة حلم إلى حد التلاشي والذوبان، احتضن وجه المرأة بيديه الاثنتين وهو يهجس حالماً:

ــ "غني يا أمي فأنا متعب، وأريد أن أنام".

تجفل المرأة باضطراب، وتتراجع إلى الخلف مذعورة وهي تصرخ بانفعال: مجنون.

وترتفع يدها مجللة بالذهب والثلج والرنين عالياً، فتتعلق بها عينا الرجل، وقد نهضت في ذاكرته كل الأيدي التي ضربته والوجوه التي طاردته، وحين هوت على وجهه عاصفة ترعد بالغضب والسخط تهيأ له أن السماء أبرقت وأرعدت للحظة، وأنها دنت منه حتى لامست وجهه وانهمر منها ما يشبه المطر الحار والمالح، وأن وميضاً من نار تطاير من عينيه كالبرق الخاطف، فانكمش مهزوماً، وقد شجب لونه وتجعد، وبكى الطفل في داخله مرعوباً وصاح: أريد أمي.

ومع هذا لم يفعل الرجل شيئاً، فقد حدق في عينيها بحزن مقهور، وهو يختنق بدمعه وينشج، فأشاحت بوجهها عنه بقرف واشمئزاز، فهجس الطفل في داخله.

ــ كنت أعرف أنك لست أمي، فقد كانت أمي تحب الغناء.

وحين اندفع يركض من جديد مثل حـــصان بـــري، كانت الشمس قد انمحت تماماً، ولم يعد لها أثر بـــالمرة، والسماء بدت مثل أرض محروقـــة، ممتلئـــة بالجثـــث وشواهد القبور.

***

نشيد المدار الثاني... منافي التيه.

***

يا أنت.

عبثاً تطارد روحك المنخورة بـــالخراب وبـــالجنون، فقدت براءتها هذه الروح. نزح الضياء منهـــا واعتراهـــا الذهول، حين صار النهار قطاً دميماً، فاحم الوجه، وفـــي عينيه غول شمسه تظهر في آخر الليل تبكي.

هدَّها البرد وأضناها الفزع.

هذه الروح متاهة من جنون وعويل

والمدى من حولها حيث استدارت، جثـــثٌ، ومقـــابر رملية، ودم.

فتجعدَّت.

وانحنى ظهرها كالصدى.

وتناثرت مزقاً في منافي التيه والألم.

***

المدار الثاني... الجنون

***

ما إن تنفس الصبح حتى دبت الحيـــاة فـــي الرجـــل المتكوم في الفراش مثل جثة محنطة، حرك رأسه بـــبطء، وعيناه تمسحان الغرفة بخوف وريبة، وحين ارتمتا فـــوق الكتاب تغير لونه وارتجف، واختنقت روحـــه المفزوعـــة بأحداث الليلة الماضية، فوثب من فراشه بشراسة الفهـــد المحاصر وخفته وراح يدور حول الكتاب وهو ينظر إليه بحقد وعداوة، والكتاب ينظر إليه ويبتسم، فاندفع يـــضربه بيديه الاثنتين وهو يهمهم ويعوي مثل ذئب مسعور، فلـــم يرف للكتاب جفن ولم يداخله خـــوف، فـــازداد هياجـــه وغضبه، وصار عواؤه خليطاً مـــن النـــشيج والـــضحك الوحشي المخيف وبانفعال وحقد قذف الكتاب من النافـــذة إلى الشارع، وغادر المنزل يطارده ليل البارحة وأحداثـــه المفزعة التي اكتظت بها ذاكرته إلى حد الاختناق والفزع، كانت ليلة رهيبة ومرعبة، وما حدث فيها كان كابوساً من الخوف والرعب والجنون.

ما إن تمدد في فراشه، وأغمض عينيه حتـــى ســـمع

وحين هوى الكتاب مرتطماً بإسفلت الشارع بقوة، لم يتأوه أو يصرخ، ظل ينظر إلى النافذة ويبتسم، وحين داعبه النسيم، وتغلغل بين أوراقه معابثاً اضطرب، ثم ارتجفت أوراقه ورفرفت بفرح مثل طيور صغيرة تود الطيران.

وقبل أن يعبر الرجل الشارع، نظر باتجاه الكتـــاب، فخيل إليه أنه كان ينظر إليه بحقد وازدراء، فاضـــطرب الرجل وشعر أنه أهين، وبكل غضبه واضطرابه ركلـــه بقدمه بقوة، فطار الكتاب عالياً، ثم عاد يتـــدحرج علـــى إسفلت الشارع حتى استقر على ظهره، وأشـــعة الـــشمس تغمره، فيتوهج مثل قنديل مضاء، وكلماته اندفعت تركض في الشارع قططاً سوداء، تتسلق ا لأشجار، والحـــافلات، والشرفات، وأعمدة الكهرباء وهي تصدر أصواتاً غريبـــة ومثيرة، أفزعت الرجل وأخافتـــه، وزاد فـــي اضـــطرابه ودهشته رؤيته للشمس وهي تغمـــر بأشـــعتها الكائنـــات والموجودات كلها، إلاَّ هو كان خارج دائرة الضوء غارقاً في الظلمة من رأسه إلى قدميه، بينما الكتاب ينظر إليـــه ويبتسم.

فكبر عذاب الرجل، وازدادت حيرتـــه واضـــطرابه، التصق بشجرة قريبة منه، حاولت الابتعاد، لكنه احتضنها بيديه الاثنتين، دفن رأسه بين أغصانها حتى تداخلا، وما عاد يعرف أيهما الرجل وأيهما الشجرة، ومع هذا ظلـــت الشجرة مضاءة، وظل هو في العتمة.

دهمته رغبة في البكاء، لكنه أخفق، خانـــه صـــوته وغاب، خلع ثيابه وتمدد عارياً على إسفلت الشارع، ظلت

ــ قالت الشمس له: لن يغير حقدك في الأمر شيئاً.

ــ قال لها: سنرى أيتها العجوز الشمطاء.

فضحكت الشمس حتى استلقت على ظهرها، وحتى تكيد الرجل وتغيظه، رفعت تنورتها حتى السرة، فشعت زهرتها وتوهجت، وأعشى نورها الأبصار، وغمر الدنيا ضياء مبهر لم ير الرجل مثله في حياته كلها، وبقي الرجل وحده يغمره الظلام، بينما كلمات الكتاب تتقافز أمامه متوهجة بالضوء، والفرح، والشماتة، ثم لا تلبث أن تشكل دائرة وتبدأ بالغناء والرقص، والرجل ينظر إليها مبهوراً ولا يصدق.

تلفت حوله. كل شيء كان طبيعياً، الشارع مكتظ بالحركة، والناس، والأصوات، ولا أحد يحس بالذي يحدث له، أو يثيره، وكأنه معزول عمن حوله، أو غير موجود بالمرة.

هي مؤامرة. هكذا فكر الرجل، والكل مشارك فيها، الشارع، والناس، والشمس، والهواء، والقطط، والشرفات،

اشتاقت روحه إلى أمه والبكاء على صـــدرها حتـــى يتعب رأسه وينام، فقد كانت ملاذه وسنده، كانت وحـــدها تعرف وجع الروح الذي يعانيه، ولأنَّهـــا بعيـــدة ونائيـــة والوصول إليها مستحيلاً، أقعى في الشارع مثـــل كلـــب ضال، دفن رأسه بين ركبتيه وراح ينتحب بمرارة.

فجأة شعر بأقدام تركض في رأسه خائفة، مـــذعورة من الرصاص الذي يطاردها، فارتجف مثل ورقـــة فـــي مهب الريح، وشحب لونه، وحين ازدادت الجلبة، وركض الأقدام في رأسه، ازداد فزعه وخوفه، فتدثر بالليل واندفع يركض مع الأقدام الهاربة.

الوقت ليلاً، والسماء تبرق وترعد، والمطر ينهمـــر بغزارة، فيختلط صوت الرصاص برائحة المطر، والرجل متكوم في الشارع يراقب ما يحـــدث بعينـــين فـــزعتين، خائفتين، ذاهلتين، والأقدام تركض في رأســـه، والرجـــل يركض معها تحت الرصاص والمطر، ونباح الكلاب راح ينبعث من كل الجهات، وروحه المفزوعة تركض باحثـــة عن ملاذ.

فجأة شعر بشيء حار وحـــارق كـــالجمرة المتقـــدة يخترقه، تلمس خاصرته، فتلوثت أصابعه بالدم، فأدرك أنه أصيب، ومن حوله تعالى الصياح، والصراخ، والضجيج، وصوت الرصاص، والرجل يركض، والأقدام تـــركض، ورأسه صار كالطبل، يتعثر، يقع، وقواه أخـــذت تخـــور، وجرحه ينزف، كل ما يراه بدا مهزوزاً ومشوشاً، وتنفسه بات بطيئاً وصعباً، أراد أن يقف، لكن صوت الرصـــاص منعه من الوقوف، كان ينوس بين الحياة والموت، والأقدام لا تتوقف عن الركض في رأسه، ونباح الكلاب يطـــارده ويمزق رأسه، وتناهى إليه صوت امرأة يقول:

ادخل ولا تخف.

وامتدت يدها في الظلمة وجرته إلى الداخل، وحـــين التقت عيناه بعينيها هاله أنها المرأة التي خانته وخذلته.

قال لها: أنت إذاً؟!

قالت له: نعم أنا.

قال لها: ما الذي جاء بك إلى هنا.

قالت له: أنت.

قال لها: ومتى كنت تهتمـــين لأمـــري أو تخـــافين علي؟..

قالت له: أنت رجل تافه. ممسوس ومجنون.

قال لها: وأنت امرأة خائنة وداعرة.

انتزع يده منها وعاد يركض، والأقدام تركض في رأسه، والمرأة الغاضبة المجروحة تشير بيدها نحوه وتدل عليه، والأقدام التي تطارده تقترب منه، تحاصره وتتقدم نحوه، والمرأة تضحك وتشير إليه.

وبسرعة مجنونة خلع رأسه وأفرغ محتوياته، لكنه لم يجد فيه شيئاً مثيراً للانتباه، كان فارغاً تماماً، مجرد قحف عظمي، امتلأ بالشروخ والندوب السوداء، فأدرك أن رأسه يخونه أيضاً، وقد صار عبئاً ثقيلاً عليه، وما عاد يحتاجه بالمرة.

قذف به في وسط الشارع، دون أي إحساس بالذنب، ركلته الأقدام، ودهسته السيارات المسرعة، وكثيراً ما خيل إلى الرجل أن الرأس كان ينظر إليه ويناديه بتوسل، والرجل ينظر إليه بعيون باردة ولا يتحرك، ماءت قطة، دارت حول الرأس، قربت وجهها منه، شمته، ثم أقعت بجواره تموء. فتجمعت قطط كثيرة حول الرأس وهي تموء، بينما كلمات الكتاب توقفت عن الرقص والغناء، وراحت تنظر إلى الرأس بإشفاق وحزن.

فجأة توقفت سيارة رمادية اللون، نزل منهـــا رجـــال مدججون بالسلاح، شكلوا حول الرأس دائرة مغلقة، وبنادقهم مصوبة نحوه، والرأس جامد، ساكن، ينظر إلـــيهم بعيـــون تفيض بالدهشة والفزع والبكاء، والرجل ينظر ولا يتـــدخل، وبسرعة كبلوا الرأس بالقيود والأصفاد، وحملـــوه معهـــم، ونحيبه ظل وحيداً في الشارع يتخبط مثل رجل أعمى.

وما أدهش الرجل وزاد في جنونه رؤيتـــه للـــشمس وهي تتجمع حول نفسها وتتكور، ثم تنهمر شلال ضـــوء مبهر يغمر النحيب ويحتضنه بحنان دون أن تنتبـــه إلـــى الرجل، أو تعيره اهتماماً.

ضرب الأرض بقدمه، وانطلق يركض في الـــشارع الطويل، الطويل، وفي دمه احتـــشد كـــل وجـــع القلـــب والروح، بينما السماء تحولت إلى صفحة من سواد عـــاتم لكنها لم تبرق، ولم ترعد، ولم يهطل المطر.

***

نـشيد المدار الثالث: عماء الرمل.

***

لا تدفن رأسك في الرمل.

فالرمل أول من خان الماء، سرق الحكمة مــن روح الطين، وتاجر بالأسرار.

يا أنت.

ايها التائه كالريح في الوديان العميقة.

لا تثق بالرمل.

فالرمل عماء.

حذاري أن تبصر من ثقب البــاب الأرجــاء، افــتح عينيك، وتخلص من هذا الدوران، وهــذا التيــه، وهــذا الهذيان.

فالظلمة غطت كل زوايا الــروح، ودثــرت قلبــك بالرماد، والحيرة القاتلة.

يا أنت!

افتح عينيك، لا تتردد، ولا تخشى الأبواب المواربة، كسرِّ مراياك المخادعة، وتخلص من نكهة الرمل، قبل أن يصحو الرمل من غفوته، وتــضيع روحــك فــي لجــة القارعة.

***

المدار الثالث... الموت

***

وقف الرجل النحيل أمام المرآة.

وكل ما فيه مترع بالمرارة، والانهيار، واليباس، فواجهته صورة رجل يشبهه تماماً، ينظر إليه بازدراء ويبتسم.

دهش الرجل النحيل مما رأى وارتبك، هزته المفاجأة، وانتابه إحساس بوجود شخص آخر معه في الغرفة، وحين دقق النظر في المرآة تعاظم هذا الإحساس عنده إلى درجة اليقين، حتى خيل إليه أنه راح يحس بحركته، ويسمع تنفسه البطيء الذي يشبه الفحيح فتلفت حوله مذهولاً ومرعوباً.

كانت الغرفة خالية تماماً، ولا أثر لمخلوق فيها غيره، فقدر أن حواسه المتعبة المرهقة قد خدعته، لكنَّ الصوت الذي تناهى إليه داخل المرآة كالصدى، وكأنه يخرج من بئر عميقة هزه، وشوَّش يقينه، فابتسم بانكسار المهزوم والمغلوب على أمره.

ـــ : لابد أنني أحلم.

هزَّ رأسه بقوة: عضَّ أصابعه العشرة حتى أدماهـــا، شدَّ شعر رأسه بيديه، وفرك عينيه بقوة، فلم يتغير شيء، وظل الرجل داخل المرآة ماثلاً أمامه، ينظر إليه بعينـــين ماكرتين ويبتسم، فشعر بالأرض تميد من تحته وتهتـــز، وبالفزع يسري في كل جسده مثل تيار كهربائي صـــاعق يهزه بقوة، ويفقده توازنه، فاتسعت ابتسامة الرجل الثـــاني حتى غطت وجهه تماماً، وشع من عينيه وميض غريب، أجفل الرجل وأخافه، فتقهقر مذعوراً، بينما روحه راحت تركض في عماء مخيف لا حدود له.

قال لرجل المرآة مرتجفاً: من أنت؟.

قال له: أنا الرجل الذي في داخلك.

قال له: وما الذي تريده مني؟.

قال له: لقد تعبت أيها المجنون، وأتعبتني معك.

قال له: والحل؟.

قال له: يموت أحدنا أو يختفي.

قال له: وما الذي يمنعك من الموت أو الاختفاء؟.

قال له: الأمر ليس بسيطاً كما تظن.

قال له: أعلمني إذاً؟.

قال له: من ينهزم هو الذي يموت أو يختفي.

قال له: وهل نحن في معركة؟.

قا له: سمها كما تريد.

قال له: اعتبر نفسك المهزوم منذ الآن.

قال له: لست أ نت من يقرر ذلك.

احتقن وجهه بالغضب .

ثم عوى كالذئب، وامتدت يده الطويلة المشعرة خارج المرآة تتلوى مثل أفعى طائرة، واقتربت من عنق الرجل النحيل، فطارت روح الرجل من الفزع، فاستنجد بكل ما تبقى منه من عزم، وبحركة يائسة مراوغة حاد عنها لترتطم بالجدار، فندَّت عنه صرخة مكتومة، وراح يقفز في الهواء كالمجنون وهو يتأوه موجوعاً، وقد شعر بألم مميت سرى في يده وشلها.

وقبل أن يفيق من ذهوله، رأى اليد مرتدة وهي تقطر دماً أسود، ثم تنفذ داخل المرآة وتغيب، والرجل في المرآة ينظر إليه بتحدٍّ، ونظراته العدوانية تهاجمه قطيعاً من المدى المتوحشة المفتونة بالقتل والدم، وتنوشه من كل اتجاه،

ـــ :يجب أن تنتهي هذه المهزلة.

يكشِّر رجل المرآة عن أنيابه، ويتحفز مثل وحش يريد الانقضاض على فريسته، وصدر عنه ما يشبه العواء، والوميض الغريب يزداد توهجاً ووحشية في العينين، ويختلط بالعواء.

أشهر الرجل النحيل مسدساً، قلبه بين يديه، دقق النظر فيه جيداً فاعتكرت عيناه واختبطتا حتى اختلط سوادهما بالبياض، وبيد ثابتة وضع الفوهة فوق قلبه تماماً، وقبل أن يضغط على الزناد، تناهى إليه صوت الرجل الثاني:

ـــ ألم أقل لك إنك لست أنت من يقرر النهاية.

فتجمد إصبعه على الزناد جثة صغيرة، محنطة، وبدا التردد واضحاً عليه. فصرخ رجل المرآة: هيا أيها المجنون الجبان. اضغط على الزناد إن كنت شجاعاً.

تظل الإصبع جثة ميتة فوق الزناد.

وفي رأسه تتصارع ملايين الأفكار وتضطرب، وإحساسه بالوحشة والموت يزداد، بينما رجل المرآة ينظر إليه باشمئزاز وتحدٍ.

فجأة.

وجد يده تتجه بالمسدس نحو المرآة، يده هـــي التـــي تحركت وتوجهت، ومع هذا شعر بارتياح غامر، وقد وجد فيها حلاً لمحنته، وهو يتخيل رجل المرآة راكعاً بين يديه، باكياً، متضرعاً، مرتجفاً من الخوف، لكن شيئاً من هذا لم يحدث.

فالرجل ظلَّ ثابتاً في المرآة كالقدر العنيد، وابتسامته تفترش وجهه، وتترامح في عينيه فرحاً من برق خاطف، وما ظهر عليه أثر للخوف أو التضرع، فأدرك أن محنته أكبر مما كان يتصورها، والهروب منها لن يجديه نفعـــاً، والواقعة بين الاثنين لابدَّ منها، فتحركت الإصبع الميتـــة وتخلصت من يبوسها وترددها، والتفـــت حـــول الزنـــاد كالحلقة، ضغطت عليه، فدوى صـــوت الرصـــاص فـــي الغرفة مختلطاً بصرخة عظيمة مذعورة، وتناثر زجـــاج المرآة في الغرفة.

ثم ساد الغرفة الصمت والسكون.

فتنهد الرجل النحيل بارتياح، وانخرط يبكي بفـــرح، وغمره شعور دافئ لذيذ انساح في داخلـــه فيـــضاً مـــن الراحة، والرضى، والفرح، والابتسامة التي غطت وجهه نورت وجهه مثل شمس الصباح.

لكن خيط الدم الذي سال من صدره أذهله وأخافــه، نظر إلى المرآة فهاله وجود الرجل الثاني داخل الإطــار الخشبي، وهو ينظر إليه بتحدٍ وشماتة، وزجــاج المــرآة وحده كان يملأ الغرفة.

وبدون أن يفكر.

تلمس صدره النازف بارتياح، فتلوثت يده بالدم.

دم أسود، له رائحة كريهة، مقرفة، نتنة، مثل رائحة القطران، فارتاع، وقد شعر بجسده يتراخى ويخور، ومــا لبث أن تهاوى على أرض الغرفة مثل شجرة منخــورة، ضربتها العاصفة حتى اقتلعتها من جذورها، وثمة غشاوة راحت تغطي العينين، وتحول دون رؤيته للأشياء بــشكل واضح.

وبصعوبة رأى الرجل الثاني يخــرج مــن الإطــار الخشبي، ويتقدم نحوه بخطوات ثابتة، حتــى وقــف فــي محاذاته تماماً، بينما بقي هو ساكناً، صامتاً وعاجزاً عــن فعل شيء، فقط كان يراقب ما يحدث بعيــون جاحظــة، باردة، مشلولة، والرجل الثاني يدور حولــه ويــضحك، وذراعاه تتحركان في الفراغ، مثل جناحي طائر خرافي، وعيناه مغمضتان، ومع ازدياد حركة الرجلين كان يتوتر ويتلوى، ينكمش ويتجعد، يبكي ويضحك، وكأنــه يــؤدي

حاول الرجل النحيل النهوض.

فما استطاع، خذلته قواه وخانتــه، اســتنجد بيديــه ورجليه، فما وجدهما، كان بلا يدين أو رجلــين، أراد أن يصرخ، لكنه كان بلا صوت أو حنجرة، كل ما فيه فــرَّ وهرب، تخلى عنه وعافه، ولم يبق لــه ســوى العينــين الجاحظتين، الباردتين، وعجز يــشله ويمــلأه باليبــاس والموات، وأدرك رجل المرآة بما كان يدور فــي رأســه فتوقف عن الدوران، جثا بجواره، أمسكه من صدره، ثــم شده، فانقاد إليه بيسر وسهولة، ثم رفعه حتى صار فــي موازاة وجهه تماماً، وعندما التقت عيونهما أذهله الــشبه الكبير الذي بينهما، فتمنى من كل قلبه لو يحضنه الرجــل ويضمه إلى صدره حتى ينطفئ تماماً، مثلما كانت تفعــل أمه معه في أوقاته العصيبة.

لكن الرجل لم يفعل ما تمناه. فقط حدق فــي عينيــه بقوة، بصق، ثم تركه يسقط مثل خرقة بالية وهو يزمجر بحقد.

قلت لك: يجب أن يموت أحدنا.

وبعينيه الجاحظتين، الباردتين رآه يفتح باب الغرفــة

***

قرنفلة لعذابات الروح

((أشهد أنَّ الريح في تسبيح.
وأن في فؤادي كل صخرة حنين
وأشهد أنها تراني.
وأنني أراها
تحلُ في المساء عراها
ثم ترتديني))

عبد القادر الحصني

قرنفلة لعذابات الروح

(1)المنافي[1]

قالت الريح: تبارك وجه الجهات فهي مسراي حيث يممت وجهي.

قالت الغزالة: ملعونة هي الريح.

قالت الريح: ليست كل العذوق لها شهوة النخيل يوم يداهمها المطر.

قالت الغزالة: أود أن تضيع الريح في الوديان مثل أفراس وحشية، ولا تجد من يدلها على صدر الجهات.

قالت الريح: دربي وأعرفه إلى صدر الجهات.

ولحظة انفرط عقد الكلام.

كانت المنافي تنهض في روحيهما مهيبة، جليلة، مثل شواهق القبور، والريح لا يبرق في ذاكرتهـــا إلاَّ صـــدر الجهات، وخط الأفق النحيل، ورمانـــه الريـــان بـــالعنبر والزبيب.

وكان يتوغل في دمها فصل بـــارد، هـــذه الغزالـــة الشاردة كالمساء على الشواطئ والخلجان البعيدة، ووعل صاخب كالعاصفة يؤاخي أظلافه وجلد السهوب، يركض في مواجهة الجهات كصوت ابتهال ضائع، بعد أن ضاع وضيِّع، وتاه عن درب الغزالة الشاردة.

***

هامش رقم "1": من جمر المنافي

انتظر الرجل النحيل المرأة التي يحبها في الحديقـــة العامة، وبيده وردة حمراء كما طلبت، وبـــرغم القلـــق والاضطراب والتوتر كان واثقاً من مجيئها.

هي التي قالت: نلتقي في الحديقة.

قال لها: نلتقي.

قالت له : إياك أن تتأخر.

قال لها: مع مطلع الـــشمس ســـأكون فـــي الحديقـــة

والرجل منذ مطلع الشمس يحّمل وردتــه وينتظــر، عيناه تراقبان مداخل الحديقة ومخارجها، تفتــشان بــين العابرين، بينما قلبه يثب من داخله كلما لاحت له امــرأة تدخل الحديقة أو تناهى إليه وقع أقدام من خلفه، وكثيراً ما خيّل إليه أنه يسمع صوتها قريباً منه ويشم رائحتها التــي تملأ الحديقة فيزداد يقيناً من مجيئها.

مرَّ من أمامه أطفال، ورجال، ونساء كثيرات، لكــن الرجل لم يكن يفكر إلاَّ بالمرأة التي يحبها قلبه وينتظرهــا بفارغ الصبر، وعندما دخل الليل عميقاً، وغــادر النــاس الحديقة، بقي الرجل وحيداً، مع وردته الحمراء بانتظــار المرأة التي لم تحضر.

***

(2) مسرى الريح[(2)]

دمي ينسرب فيضاً من الفتنة و الجمر، وروحي هي العاشقة، أصابع حانية، تبارك صدرها، صدر الجهــات، فهي معراجي حيث يممت إلى مقصدي العاصــي، تقبــل علي سافرة، ناضجة كالدراق الــشهَّاء، أغنيــة طافحــة بالاشتعال، والعبق الشجي، وملاسة الرخام.

قامة من الزَلِّ ا لمقصف والندى، تسامق فيها العلــو اخضراراً رعاشاً، وأينعــت بــالزهر المحــرم والثمــر، فانتشت فتنة، وماست درية في فتون ولون.

يا صدرها باتساع الأرض.

موئل الفصول الوريفة بــالنعمى، وأنفــاس العبيــر فاشتهيها، وأعرف أنها تشتهيني، دمي يمام يغني: هلمي. تعالي إلي صخابة في فتون امرأة لها طعم العنب المخمر عند الظهيرة، فضاحة كحزمة ضوء تدثر بها نهدان مــن ثلج ونار.

فتقبل شهقة تترقرق بالفرح المضرَّج باشتعال الندى، وما في الروح من توق وجمر. هاذي خطاها.

ربيع في سهوب العمر، وفي دمي تنشــال قرنفلــة، أرتديها لباساً لكل المواسم والفصول والأزمنة، ترتــديني اشتعالاً وتسكب في فمي قهوتها المهيلة بالمسك، والعسل، والزنجبيل، تنثني الصباحات موائداً من نرجس، والحرائق تغادرها ألوانها، وتشتعل بدفء الأصابع في فيض الشذى، وعري الرخام.

هي الجهات.

ليس سواها، وجه الغزالة، حيث اتجهت، سر التباريح في قلبي، ونبض الفصول في دمي، حين يداهمني الموات،

هي الجهات.

لا شيء يحتويني سواها.

تبارك وجهها، فهي مسراي حيث يممت وجهي، وشموس الفصول.

***

هامش رقم "2": ماغاب عن ذاكرة النص

أغلق الرجل الأبواب.

أغلق النوافذ والشرفات، ومزق صورة المرأة المعلقة على الجدار، ثم أطلق على ذاكرته الرصاص، ومع هذا شعر بالمرأة تتحرك في داخله كالوسواس، ما بين قلبه وروحه تحركت، ورائحتها تسللت إليه من مسامات الجدران، واقتحمت عليه وحدته.

فما كان منه إلاَّ أن أخرج قلبه من صدره وهو يرعد بالغضب والمرارة، وما إن وقعت عيناه عليه وهو يرتعش بين يديه حتى جمد، فقد أذهله أن القلب كان له شكل المرأة التي تسكن روحه في اليقظة والمنام، وتملأ حياته

فاندفع يضحك ويبكي.

يبكي ويضحك وهو يدور في الغرفة كالمجنون لاطماً وجهه وصدره وكأنه في مناحة حتى تقطع إلى أجزاء صغيرة دامية.

***

(3) ما قالته الأغنية

قالت الأغنية: ثمة وقت يأتي، تعافني فيه كل القلوب وتمضي، إلاَّ القلب العاشق وحده الذي يظل معي، ولا يهجرني، نديمي يظل، وبعضي الذي لا يخون، قهوته من كأسي، وكأسي من اشتعال النوى فيه، أميرة على شرفة القلب يجلسني، ويجلس بين قمراً مترعاً بالمرارة، والحزن, والهديل، ويروح يبوح لي بالذي فيه، والذي فيه فيَّ، والمنافي في روحينا واحدة، ويتلو علي نبأ الفصول الذبيحة، وضيق الزمان، ووجع المنافي الهاجعة في الروح، ويبكي.

فتبكي الجهات.

تبارك وجه الجهات، وفي أحداقها ترمح الغزالة الشاردة، فأنسى الذي فيَ، والذي فيه، أنسى عذابي،

منذور لها عمري، حزني عليها، أنهض، يفر انكسار الزمان من دمي، تفر مني محنتي، وأسطع غزالـــة فـــي القلب العاشق، وفي فمي يبرق رذاذ الشهوة، ، مثل جمان يعانق الشمس، أو شمس تعانق جمانها، يـــنهض القلـــب العاشق، ثم يصير نهاراً فوق كفي، يسافر فـــي صـــخَّاباً يغني، وأغني، نغني معاً، ودمنا ينسرب فيضاً من الفتنـــة والجمر إلى حيث تتبعث رائحة الغزالة.

***

الفهرس

الإهداء.....7
مدخل.....9
تقدمه.....11
الظهيرة ورائحة الياسمين.....13
1-قيامة الرائحة.....13
2-قيامة الجسد.....16
3-قيامة الخوف.....18
4-قيامة اللحظة.....21
نشيج الفصول الخائفة.....26
1-نشيج المرارة.....26
2-نشيج الروح.....27
3-نشيج الليلة الوارفة.....31
4-نشيج الدم.....34
الشرفات ترتدي حدادها.....42
(1) :الرجل.....42
(2) :الكرسي.....47
(3) :المرأة.....52
من رعاف الليل والحلم والذاكرة.....60

1-الفقد..... 60
2- ما حدث ليلة البارحة. 61
3- منافي الروح 73
من سيرة الدم والخراب 78
شجر الوهم 92
1-شجر الحلم 92
2 ــ شجر الروح..... 96
3 ــ شجر الماء 99
مدارات الزمن الموحش " ثلاثية " 102
نشيد المدار الأول... خراب الذاكرة 104
المدار الأول: ... الوحشة. 105
نشيد المدار الثاني... منافي التيه..... 111
المدار الثاني... الجنون 112
نشيد المدار الثالث: عماء الرمل. 119
المدار الثالث... الموت 121
قرنفلة لعذابات الروح..... 130
(1)المنافي((1)) 130
(2) مسرى الريح((2)) 132
(3) ما قالته الأغنية..... 135
الفهرس 137
صدر للمؤلف :..... 139

***

صدر للمؤلف :

* *السخط وشتاء الخوف.قصص . اتحاد الكتاب العرب.*
* *الركض في الأزمنة المنهوبة. قصص. دار الشبيبة.*
* *موت الرجل الغريب. قصص. دار ابن هانئ.*
* *المغني والنحلة. قصص. اتحاد الكتاب العرب.*

***

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية

SyrianStory